الدكتور
محمد عمارة
المفكر الإسلامي

الإصلاح بالإسلام
(٨)

التعارف بين الحضارات والمراجعات العلمانية



اسم الكتاب: التعارف بين الحضارات والمراجعات العلمانية
الدكتور محمد عمارة
الطبعة الأولى: ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة.
٧٢ صفحة: ١٤ × ٢٠سم
رقم الإيداع: ٢٠١١/١٢٥٩٦
الترقيم الدولى I.S.B.N
977-225-329-7



دار الكتب والوثائق القومية

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية
عمارة، محمد
التعارف بين الحضارات والمراجعات العلمانية/ محمد عمارة.
القاهرة: مكتبة وهبة، ٢٠١١م.
٧٢ ص: ٢٠سم.- (الإصلاح بالإسلام: ٨)
تدمك ٧ ٣٢٩ ٢٢٥ ٩٧٧
١- الإسلام والحضارة
أ- العنوان
ديوى ٢١٤,٣٠١٢

مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر ٦٨ شارع العباسية - القاهرة - ت: ٩٤٨٢٧٨٥١

فاتحة

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣].

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾ [الروم: ٢٢].

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة: ٤٨].

- «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها» [رواه الترمذى وابن ماجة].
- «الحكمة: الإصابة فى غير النبوة» [فتح البارى على صحيح البخارى].
- «خليق بنا ألا نخجل من الاعتراف بالحقيقة واستيعابها مهما كان مصدرها» [الكندى (٢٦٠هـ - ٨٧٣م)].

- «إنه يجب علينا أن نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا فى ذلك، سواء أكان مشاركا لنا فى الملّة أو غير مشارك، طالما كان صوابا» [ابن رشد (٥٢٠- ٥٩٥هـ- ١١٢٦- ١١٩٨م)].

- «إن أبا العلم وأمه هو الدليل.. والحقيقة تلتمس حيث يوجد الدليل» [جمال الدين الأفغانى (١٢٥٤- ١٣١٤هـ- ١٨٣٨- ١٨٩٧م)].

***

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

فى الرؤية الإسلامية للكون: **الواحدية والأحدية -فقط- للذات الإلهية.. وكل من وما عدا الذات الإلهية يقوم على التعدد والتنوع والتمايز والاختلاف..**

وهذا التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف، هو -فى الرؤية الإسلامية- قانون وسنة من سنن الله التى لا تبديل لها ولا تحويل، وليس مجرد أمر عارض، ولا جزئى ولا هو مجرد حق من الحقوق، يُمنح ويُمنع، وفقًا للظروف والملابسات.

وهذه التعددية، بسبب من أنها قائمة فى كون واحد، فإنها لا تعنى التشرذم الدائم، ولا القطيعة التامة، ولا الانفصال الحاد.. لأنها تمايز وتنوع فى كون واحد -طبيعى أو إنسانى-.. كما أنها مستعصية على الوحدة والاندماج والتماهى فى نموذج واحد، وإلا فقدت خاصية التنوع والتمايز والتعدد والاختلاف.. **إنها خاضعة -دائمًا وأبدا- لقوانين علاقات «العموم والخصوص»، أى الاتفاق فى صفات ومكونات.. والاختلاف فى صفات ومكونات أخرى.. وهذا هو «التعارف» بين مكونات هذا التنوع والاختلاف.**

فالإنسان، الذى يعيش فى قبيلة أو شعب أو أمة، يتميز -كفرد- بخصوصيات تمثل بصمته الخاصة المميزة له عن سواه.. وهو -فى ذات

الوقت- يشترك مع الآخرين -فى محيطه- فى الصفات الجوامع التى تميز قبيلته أو شعبه أو أمته. . وكذلك الحال فى علاقة الأمة بغيرها من الأمم. وعلاقة الحضارة بغيرها من الحضارات.

ولقد ساد هذا القانون -قانون الخصوص والعموم- فى علاقات الحضارات بعضها ببعض على امتداد التاريخ. . فلم يحدث أن اندمجت وتماهت هذه الحضارات فى حضارة واحدة، حتى فى ظل مراحل الغزو والاحتلال والقهر، التى امتدت لقرون عديدة -كما حدث للشرق من قِبل الإغريق والرومان. . ومن قِبل الصليبيين. . ومن قبل الاستعمار الغربى الحديث.

ولم يحدث -أيضًا- أن قامت أسوار صينية مانعة من التعارف بين الحضارات، حتى فى الأزمنة القديمة، التى لم تكن قد تطورت فيها وسائل التواصل والاتصال. . وإنما كان هناك -دائمًا وأبدا- **التفاعل، الذى يثمر التعارف.. والخصوصية، التى تثمر الحفاظ على التمايز والتعدد والاختلاف.**

ولقد عبر القرآن الكريم عن هذا القانون الذى حكم هذه العلاقات بين الأمم والشعوب والثقافات والحضارات فى كثير من آياته الكريمة. . وكنموذج لها:

* فى القوميات والأجناس: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ**﴾ [الروم: ٢٢].

* وفى الشرائع والمناهج: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨].

وإذا كان التسابق -بين الفرقاء المتعددين- على طريق الخيرات والتقدم والتطور والصلاح والإصلاح -لا يمكن أن يتحقق فى ظل الوحدة والاندماج والتماهى -التى ينتفى معها التعدد ووجود فرقاء متسابقين-، فإن هذا التسابق لا يمكن أن يتحقق إذا كانت هناك قطيعة كبرى وعزلة تامة وأسوار مانعة من الالتقاء والتفاعل والأخذ والعطاء.. وهذه هى درجة «التعارف»، التى هى سبيل التعايش.. وأيضًا سبيل التسابق على طريق الخيرات والتقدم والصلاح والإصلاح.. إنها الغاية من التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف.. عبّر عنها القرآن الكريم عندما قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

***

ولأن هذه هى الرؤية الإسلامية للكون -الطبيعى.. والإنسانى.. والفكرى.. بل والنباتى.. والحيوانى- فلقد جاء التاريخ الحضارى للأمة الإسلامية مصداقًا وتطبيقًا لهذا القانون.. فعندما حررت الفتوحات الإسلامية الشرق من القهر الإغريقى/ الرومانى -الذى دام عشرة قرون- من «الإسكندر الأكبر» [٣٥٦- ٣٢٣ ق.م] -فى القرن

الرابع قبل الميلاد- وحتى «هرقل» [٦١٠-٦٤١م] -فى القرن السابع للميلاد-.. عندما حررت هذه الفتوحات الإسلامية الشرق من هذه الهيمنة الاستعمارية الغربية، ودخل هذا الشرق -من «غانة»- غربا إلى «فرغانة» -شرقا-.. ومن «حوض نهر الفولجا» -شمالا- إلى جنوبى خط الاستواء- فى إطار الدولة الإسلامية، وجد المسلمون أنفسهم أمام صورة جامعة ومجسدة للتنوع الثقافى والحضارى الذى عرفته الإنسانية حتى ذلك التاريخ.. ولقد كان قانون «التعارف» بين الثقافات والحضارات -المعبر عن الرؤية الإسلامية للكون- هو الذى وضعه المسلمون فى الممارسة والتطبيق عندما تعاملوا مع هذا التنوع الحضارى الذى ورثوه..

وإذا شئنا نماذج شاهدة -مجرد نماذج- على صدق هذه الرؤية.. وعلى التطبيق الخلاق لهذا القانون.. فإننا يمكن أن نقدم إشارات إلى هذا التعارف بين الحضارة الإسلامية البازغة، وبين المواريث الحضارية التى وجدها المسلمون فى بلاد الشرق التى دخلت فى إطار الإسلام.

-١-

إبان حكم عمر بن الخطاب [١٣- ٢٣هـ- ٦٣٤- ٦٤٤م] -رضى الله عنه- خرجت الدولة الإسلامية عن بساطتها وسذاجتها، عندما امتدت حدودها- بعد إزالة هيمنة الفرس والروم -من مصر إلى فارس- عبر الشام والعراق-.

ولقد استشار عمر بن الخطاب أهل الشورى فى التعامل -الإدارى.. والاقتصادى.. مع هذا الواقع الجديد.. فكان رأى البعض- ومنهم عثمان بن عفان [٤٧ ق.هـ- ٣٥هـ- ٥٧٧-٦٥٦م] وعلى بن أبى طالب [٢٣ ق.هـ- ٤٠هـ- ٦٠٠- ٦٦١م] -الإبقاء على النظام القائم.. لكن المتطلبات الجديدة للواقع الجديد، جعلت الخليفة يأخذ بمشورة الذين رأوا فى الحضارة الرومانية والحضارة الفارسية «**تنظيمات**» للإدارة والجيش والاقتصاد، تتطلبها الصورة الجديدة للدولة الإسلامية الكبرى.. ولقد تحدث الوليد بن هشام بن المغيرة -الذى تعرف على واقع الحضارة الرومانية- محبذا التفاعل مع خبراتها فى «**التنظيمات**» فقال لعمر بن الخطاب:

- «**يا أمير المؤمنين، لقد جئتُ الشام، فرأيت ملوكها دوّنوا ديوانا وجندوا جنودا، فدوِّن ديوانا وجنّد جنودا -فأخذ- [عمر]- بقوله**»[١].

هكذا بدأ التعارف بين الحضارة الإسلامية وبين الحضارة الرومانية فى «**التنظيمات**» الإدارية والعسكرية والاقتصادية، منذ خروج هذه الحضارة الإسلامية من نطاق الحجاز بشبه الجزيرة العربية.

* وبعد أن كانت دولة الخلافة -فى طور بساطتها وسذاجتها- توزع مواردها القليلة على رعيتها فور مجئ هذه الموارد -كما توزع الغنائم على المقاتلين- غير المحترفين، الذين يعودون لحياتهم العادية بعد الفراغ من القتال-.. اقتضى الواقع الجديد، الذى تطلب جيشا محترفا يحرس

(١) ابن سعد [الطبقات الكبرى] جـ٢ ق١ ص ٢١٢، ٢١٦. طبعة دار التحرير- القاهرة.

الثغـور الكثيرة -ومن ثم «ديوانا للعـسكر»- وتطلب نظاما مـاليا ينظم الإنفاق الدائم على احتـياجات الدولة ومؤسساتهـا- اقتضى هذا الواقع الجديد التعرف على ما لدى الحضـارات الأخرى من خبرات وتنظيمات فى هذه الميادين. . فأشار الذين خبروا تجارب الفرس فى هذه التنظيمات على عمر بن الخطاب. . وقال واحد منهم:

- «**يا أميـر المؤمنين، إنى قد رأيت هؤلاء الأعـاجم يدونون ديوانًا يعطون الناس عليه. فدوَّن عمرُ الديوان**»(١).

* وفى تحديد النظام الضـرائبى الذى تعتمده الدولة الإسلامـية -بعد أن دخلت فى إطارهـا الأودية الكبـرى لأنهـار الشـرق -الـنيل. . ودجلة. . والفرات. . وبردى- تعرّفت هذه الدولة- على عهد عمر بن الخطاب- على النظام الضرائبى الذى كان قد اختاره الملك الفارسى العادل «كسرى بن قباذ» (أنو شـروان) [٥٣١- ٥٧٨م]. . وهو النظام الذى كـان يسـمى «وضـائع كسـرى». . والقائم على «المساحـة» -أى تحصيل نسبـة معينة على المسـاحة المعينة من المحصول المعين -وليس نظام «المقاسـمة»- الذى يأخذ نسبة مقررة من المحصول، بصرف النظر عن المساحة وعن جودة الإثمار أو عدم جودته.

وعن هذا التعـرُّف والتعـارف والاستلهـام يقول «الماوردى» [٣٦٤- ٤٥٠هـ- ٩٧٤- ١٠٥٨م]: «**وجرى عـمـر بن الخـطاب فـى ذلـك عـلى ما استوقفه من رأى كسرى قباذ**»(٢).

---

(١) ابن سعد (الطبقات الكبرى). جـ٢ ق١ ص ٢١٢، ٢١٦.

(٢) الماوردى [الأحكام السلطانية] ص ١٤٨، طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣م.

ولقد ظل هذا النظام الضرائبى -الذى أخذته الحضارة الإسلامية عن الحضارة الفارسية- قائمًا حتى خلافة «المهدى العباسى» [١٥٨- ١٦٩هـ- ٧٧٥- ٧٨٥م][1].

***

هكذا تعارفت -وتعرّفت- الحضارة الإسلامية على التنظيمات التى كانت سائدة فى حضارات الشرق يومئذ -الرومانية.. والفارسية- ..فأخذت منها ما رأته مناسبًا من النظم الإدارية.. والعسكرية.. والاقتصادية.. **جاعلة هذه «التنظيمات» آليات لتحقيق مقاصد الإسلام ومثله وقيمه التى جاءت بها الشريعة الإسلامية.. فى ذات الوقت الذى حافظت فيه على خصوصياتها العقدية والقيمية، فلم تأخذ بشىء من بضاعة الروم والفرس فى هذه الميادين.. أى أنها قد طبقت -فى التعارف الحضارى- قانون العموم والخصوص.. فاستلهمت المشترك الإنسانى العام.. واحتفظت بما لها من خصوصيات.**

وكما رفض المسلمون عقائد الفرس والروم وفلسفاتهم الدينية، رفضوا كذلك فلسفاتهم السياسية.. رفضوا ما لديهم من النظم الملكية الجبرية.. ومن الكسروية والقيصرية -التى تحكم بالحق الإلهى المعصوم.. ورفضوا -كذلك- النظم الطبقية المغلقة- التى كانت سائدة فى نظمهم الاجتماعية.. وكذلك رفضوا التأبيد والتقديس لنظم العبودية

(١) دكتور محمد ضياء الدين الريس [الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية] ص ٧٥، ١١٠- طبعة القاهرة سنة ١٩٦١م.

والاسترقاق واختار المسلمون نظام الخلافة -الذى هو إبداع إسلامى- يستمد فيه الخليفة سلطانه من الأمة، التى تختاره، وتبايعه، وتراقبه، وتحاسبه، وتعزله عند الاقتضاء.. ولقد سأل عمر بن الخطاب خبيرا بنظم الحكم الفارسية والرومانية وفلسفاتها وموقعها من قيمة العدل -التى جاء بها الإسلام- فقال «لسلمان الفارسى» [٣٦هـ- ٦٥٦م]:

- **أملك أنا أم خليفة؟**

- فقال له سلمان: «**إن أنت جَبَيْتَ من أرض المسلمين درهما أو أقل أو أكثر ثم وضعته فى غير حقه فأنت ملك غير خليفة..**

فاستعبر عمر».. ورفض لقب الملك، الذى تتنافى فلسفة حكمه مع عدالة الإسلام وشوراه[١].

-٢-

وغير التعرّف والتعارف بين الحضارة الإسلامية وحضارات الروم والفرس فى «**النظم والتنظيمات**».. بدأ التعارف على العلوم الطبيعية - العلوم الدقيقة والمحايدة.. ذات الحقائق والقوانين الثابتة.. والمتميزة عن العقائد والقيم والفلسفات والآداب والأيديولوجيات.. وهى التى سميت -فى تراثنا- بـ«**علوم الصنعة**»..

ولقد ارتاد الأمير الأموى «خالد بن يزيد» [٤٨- ٩٠هـ- ٦٦٨- ٧٠٨م] ترجمة علوم الصنعة هذه، فأنقذ علوم مدرسة الإسكندرية-

(١) [الطبقات الكبرى] جـ٣ ق ١ ص ٢٣١، ٢٢١.

التى تعرضت كتبها ومكتباتها ومدارسها ومجامعها وعلماؤها وفلاسفتها لاضطهاد النصرانية المصرية قبل الفتح الإسلامى-.. صنع خالد بن يزيد -الذى تصدر قائمة الحكماء فى الحضارة الإسلامية- ذلك الإنجاز وتلك الريادة، فكوّن «إمارة» للترجمة ولعلماء العلوم الطبيعية، مستقلة عن إمارة الدولة وسلطانها..

ولقد بلغ شأن هذا الأمير -الحكيم- رائد الترجمة والإبداع فى هذا الميدان والذى أجرى التجارب على تحلية مياه البحر، وتحويل مالحها إلى عذب، إلى الحد الذى جعل عمر بن عبد العزيز [٦١- ١٠١هـ- ٦٨١- ٧٢٠م] يقول عنه -وكلاهما أموى-:

«ما ولدت أمية مثل خالد بن يزيد لا أستثنى من ذلك عثمان - [بن عفان]- ولا غيره»!..

ولقد وصفه «ابن النديم» [٣٩٠هـ- ١٠٠٠م] -صاحب [الفهرست].. ومؤرخ العلوم والفنون- فقال:

«إنه كان فاضلا فى نفسه، له همة، ومحبة للعلوم خطر بباله حب الصنعة (الكيمياء)، فأمر بإحضار جماعة من الفلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مصر، وقد تفصَّح بالعربية، وأمرهم بنقل الكتب من اللسان اليونانى والقبطى إلى العربى. وهذا أول نقل كان فى الإسلام من لغة إلى لغة»[1].

---

(١) ابن النديم [الفهرست] جـ١ ص ٢٤٢.

وقال عنه الجاحظ [١٦٣- ٢٥٥هـ- ٧٨٠- ٨٦٩م]:

«إنه أول من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء»[١].

وعلى هذا الدرب سار الخليفة عمر بن عبد العزيز، الذى كان أول من عمم دراسة الطب فى الحواضر الإسلامية، بعد أن كانت دراسته مقصورة على الإسكندرية وحدها.

حدث هذا التعارف على تراث الإغريق والرومان فى العلوم الطبيعية -الدقيقة والمحايدة- **فى الوقت الذى رفض فيه المسلمون «غنوصية» الثقافة** الهلينية.. **وعقائد التثليث والصلب والكهانة التى طبعت الثقافة واللاهوت الكنسى فى الامبراطورية الرومانية، كما رفضوا الآداب الإغريقية - وملاحمها- المليئة بالوثنية وصراعات آلهة اليونان.**

-٣-

وفى الدولة العباسية -وخاصة إبان حكم الخليفة المأمون [١٩٨- ٢١٨هـ- ٨١٣- ٨٢٢م] -تعرّفت الحضارة الإسلامية على قطاع من العلوم الإنسانية والاجتماعية، تمثل فى الفلسفة الأرسطية على وجه الخصوص.. **ولم يكن ذلك بهدف اتخاذها فلسفة للإسلام والحضارة الإسلامية، وإنما لاستخدام هذه العقلانية اليونانية سلاحًا يحارب به المسلمون «الغنوصية» و«الباطنية» اليونانية -غنوصية الأفلاطونية المحدثة-،** التى سبق لها وأفسدت التوحيد النصرانى -«بالحلول والاتحاد»-.. ثم استدارت

---

(١) الجاحظ [البيان والتبيين] جـ١ ص ١٧٨.

لإفساد التوحيد الإسلامى.. فكانت ترجمة العقلانية الأرسطية -المشَّائية- سلاحا يونانيًا للرد على الذين لا يؤمنون إلا بما هو يونانى! -[متغربة ذلك العصر]!!-..

وبعبارة «ابن سينا» [٣٧٠- ٤٢٨هـ- ٩٨٠- ١٠٣٧م] -صاحب الباع الطويل فى شرح وعرض هذه الفلسفة:

«لقد نزعت الهمة بنا إلى أن نجمع كلاما فيما اختلف أهل البحث فيه، لا نلتفت فيه لفت عصبية أو هوى أو عادة أو إلْف. ولا نبالى من مفارقة تظهر منا لما ألفه متعلمو كتب اليونانيين إلفا عن غفلة وقلة فهم، ولما سُمع منا فى كتب **أَلَّفناها للعاميين من المتفلسفة المشغوفين بالمشائين، الظانيين أن الله لم يهد إلا إياهم، ولم ينل رحمته سواهم**.. مع الاعتراف منا بفضل أفضل سلفهم.. ولقد أودعت هذا فى كتابى [الشفاء] و[اللواحق].. **أما من أراد الفلسفة على ما هى عليه بالطبع وعلى ما يوجبه الرأى الصريح الذى لا يراعى فيه جانب الشركاء فى الصناعة، ولا يُتقى فيه من شق عصاهم ما يُتقى فى غيره، ولا سيما فى الأشياء التى هى الأغراض الكبرى والغايات القصوى التى اعتبرناها وتعقبناها مئين من المرات، فعليه بكتابى [الفلسفة المشرقية]**..»[(١)].

---

(١) نلينو [محاولة المسلمين إيجاد فلسفة شرقية] -بحث منشور بكتاب دكتور عبد الرحمن بدوى [التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية] ص ٢٧٧، ٢٧٨- ٢٨٢ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥.

ويؤكد على هذه الحقيقة -حقيقة أن تعرّف المسلمين على الفلسفة اليونانية، وترجمتهم للعقلانية الأرسطية، إنما كانت «استعارة» سلاح يونانى للرد على الباطنية والغنوصية اليونانية، وليست لاتخاذها فلسفة للإسلام -إذ فلسفة الإسلام قد تبلورت فى «علم التوحيد» -«علم الكلام»- «علم أصول الدين»- فى النصف الثانى من القرن الهجرى الأول- وقبل ترجمة الفلسفة اليونانية-. . يؤكد على هذه الحقيقة المستشرق الألمانى «بكر- كارل هينرش» [١٨٧٦- ١٩٣٩م]، فيقول:

«لقد كان الغنوص يحارب الإسلام دينيًا وسياسيًا، وفى هذا النضال استعان الإسلام بالفلسفة اليونانية، وعنى بإيجاد عالم من العلوم الدينية العقلية.. فكأن الإسلام الرسمى قد تحالف إذا مع التفكير اليونانى والفلسفة اليونانية ضد «الغنوص» الذى كان خليطًا من المذاهب القائمة على النظر والمنطق وعلى مذاهب الخلاص.. ومن هنا نستطيع أن نفسر حماسة الخليفة المأمون للعمل على ترجمة أكبر عدد ممكن من مؤلفات الفلاسفة اليونانيين إلى العربية...»[١].

-٤-

وغير التعارف مع الحضارات الفارسية والرومانية واليونانية. . كان تعارف الحضارة الإسلامية مع تراث الحضارة الهندية. .

ونحن عندما نقرأ البيرونى [٣٦٢- ٤٤٠هـ- ٩٧٣- ١٠٤٨م] - الذى يقول عنه المستشرق «سخاو» [١٨٤٥- ١٩٣٠م]: **«إنه أعظم عقلية**

(١) بكر [وارث ووارث] -المصدر السابق- ص ٧-٩.

عرفها التاريخ». . ونعلم أنه عاش بالهند أربعين عامًا، تعلم فيها اللغة السنسكريتية، وعددا من اللغات الهندية الأخرى. . ودرس ديانات الهند وفلسفاتها بلغات أهلها. . وكتب عن الحضارة الهندية أوثق وأشمل المصادر التى استوعبت تراث هذه الحضارة وإبداعاتها فى الفلك والرياضيات والهندسة والحساب والصيدلة والأعشاب. . من مثل كتب [تاريخ الهند، أو تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة] وكتاب [باتنجل] -الذى احتوى على «أكثر الأصول التى عليها مدار اعتقادات الهنود». . وكتاب [تاريخ الأمم الشرقية]. . وغيرها- ندرك كيف كان البيرونى نموذجًا لتعارف الحضارة الإسلامية مع الحضارة الهندية. . وكيف أثمر هذا التعارف -من خلال عبقرية البيرونى- فتوحات وإضافات فى تحقيق قياس محيط الأرض. . واختراع كثير من الآلات الفلكية. . ووضع العديد من الجداول الإحصائية وجداول المقارنة لتحديد مواقع الأجرام السماوية. . ومعرفة زاوية محور الأرض، وأطوال البلدان وعروضها. وقياس طول السنة، وتحديد حركات القمر ومنازله وأحواله وشكل فلكه، وقياس بُعده عن الأرض. . **واكتشاف «أن الأرض متحركة حركة الرحى على محورها».. واكتشاف «جاذبية السماء للأرض، وجاذبية الأرض لما عليها وما حولها، فالشىء إنما ينجذب إلى النطاق الذى يقع فيه، وإن كان هو ونطاقه منجذبين إلى السماء»**. . والإسهام فى وضع الأسس العلمية لميكانيك السوائل وتوازنها. . وحساب الوزن النوعى لعدد من المعادن والأحجار. . وبلورة عدد من

النظريات الهندسية، وأخـرى فى حساب المثلثات غيـر التى توصل إليها علماء اليونان. . مع إسهامات فى الجيولوجيا. . والجغرافيا الرياضية. . والتأريخ للعقاقير والأعشاب الهندية.

نعم. . كان البـيرونى «**بعـثة علمـية**» تعرفت على الحـضارة الهندية، واسـتلهمت أفـضل مـا فى تراثهـا. . مع التحـفظ على مـا للهند من خصوصيات فى الفلسـفات والديانات. . وذلـك وفق قانـون: استـهام ما هو مشترك إنسانى عام. . مع احترام ما لكل حضارة من خصوصيات. . أى التمييز -بعبارة البيرونى- بين «**المقولات المقبولة والمرذولة**»![1].

-٥-

وجدير بالذكـر أن هذا المذهب الإسلامى فى «تعارف الحـضارات»، لـم يقف فقط عند ما أشرنا إليه من التمـييز فى مواريث الحضارات التى تم التعارف عليها عند حدود استلهام العلوم الطبـيعية والدقيقة والمحايدة -التى تمثل مشـتركـا إنسانيا عـامًا، لا تتغـاير حقائقـه وقوانينه بتـغاير الديانات والفلسفات- مع توظيف هذه العلوم الطبيعية- بعد تطويرها- فى خدمة عقائد الإسلام ومقاصد شريعته. . وإنما نهض المسلمون- فى هذا التعـارف- بمهمـة أخرى، **هى النظر النقـدى فى حقـائق هذه العلوم الطبيعـية وقوانينها التى توصل إليهـا القدماء**. . فلقد أبدع علماء الإسلام فن التأليف فى «**الشكوك والمراجعات**» لكثير مما قرره القدماء من حقائق

(١) [الموسوعة العربية] المجلد الخامس -طبعة دمشق- سنة ٢٠٠٢م.

وقــوانين هذه العلوم، وذلك باســتخــدام «**التــجــارب**» التى برع فــيهــا المسلمون، بعــد إبداعهم للمنهج التــجريبى، **فكان التصــحيح الإسلامى لكثير مما قرره علماء تلك الحضارات القديمة فى ميادين تلك العلوم.**

لقد انطلق العلماء المسلمون إلى اكــتشاف المنهج التجريبى من **اعتماد «مــبدأ الشك» للــوصــول إلى «اليــقين»**.. ورفــضــوا التــسليم بما سطره القــدماء.. وفى تقــرير هذا «المبدأ» قــال النظَّام- إبراهيم بن اســحق- [٢٢١هـ-٨٣٦م]، وهو من أئمة المعتزلة الذين اشتغلوا بالعلوم الطبيعية والتجريبية: -

«**إن أول شرط للمعرفة هو الشك**»

وقــرر حجــة الإسلام أبو حــامد الغــزالى [٤٥٠-٥٠٥هـ-١٠٥٨-١١١١م]، وهو من كبار أئمة الأشعرية- هذا المبدأ، فقال:

«**من لم يشُكّ لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبــصر ففى العمى والضلال**»

وعن هذا المبدأ عبر أبو على الجبائى [٢٣٥-٣٠٤هـ-٨٤٩-٩١٦م]، فقال: «**إن الواجب الأول على الإنسان هو النظر**».

أما الشيخ أبو هاشم الجبائى [٢٤٧-٣٢١هـ-٨٦١-٩٣٣م] فقال:

«**إن الواجب الأول على الإنسان هو الشك**»[١].

---

(١) دكتور على فهمى خشيم [الجبائيان أبو على وأبو هاشم] ص ٣٣٣. طبعة ليبيا ١٩٦٨م.

ولقد فصّل الجاحظ [١٦٣-٢٥٥هـ-٧٨٠-٨٦٩م]، فى بيان هذا «المبدأ» حتى لقد اعتبر الشك- الموصل إلى اليقين- علما من العلوم التى يجب طلبها وتعلّمها، فقال:

«.. فاعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة له، لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له. وتعلم الشك فى المشكوك فيه تعلّما، فلو لم يكن فى ذلك إلا تعرّف التوقف، ثم التثبت، لقد كان ذلك مما يُحتاج إليه، فلم يكن يقين قط حتي كان قبله شك، ولم ينتقل أحد عن اعتقاد إلى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك[1]».

وانطلاقا من هذا «المبدأ»- مبدأ النظر والشك- بحثا عن اليقين- تبلور فى تراث الإسلام، الذى ارتبط بالتعارف مع الحضارات الأخرى، فن التأليف فى «الشكوك» على ما كتبه القدماء.. وشاعت فى هذه المؤلفات عبارات من مثل:

«لقد لاحظتُ»..

«أنا نفسى قد رأيتُ»..

«لا أستطيع أن أجارى أرسطوطاليس [٣٨٤-٣٢٢ق.م] فى هذه النقطة»..

«.. لأننا، رغم إجلالنا لجالينوس [١٢٩-١٩٩م] فإن ما شاهدناه بملء أعيننا أقرب إلى التصديق»..

---

(١) الجاحظ [كتاب الحيوان] جـ٦ ص٣٥-٣٧ تحقيق: عبد السلام هارون. طبعة القاهرة-الثانية.

وفى إعلاء المنهاج التجريبى، وتحكيمه فى المنقول.. قال الطبيب الغرناطى ابن الكاتب:

إن القاعدة التى يجب أن ننطلق منها دائمًا هى: أن برهانا اقتُبس عن المنقول، عليه أن يخضع للتغيير حين يقف على النقيض الظاهر مما تشير حواسُنا إلى صدقه..».

وقال الطبيب العربى المسلم ابن الخطيب [٧١٣-٧٧٥هـ-١٣١٣-١٣٧٤م]:

«إن القاعدة التى يجب أن نستند إليها دائما، هى: أن برهانا تاما أُخذ بطريق النقل، ينبغى أن يخضع للتعديل إذا ما أتخذ موقفًا مناقضا مما يشير إليه إدراكنا الحسى».

وقال الطبيب وعالم النبات ابن البيطار [٦٤٦هـ-١٢٤٨م]:

«كل ما كتبتُه هنا نابع من تجربتى الشخصية، أومن تقارير أمثال هؤلاء المخالفين الذين نعرف عنهم أنهم كتبوا ما وجدوه ثابتا من خلال التجربة الخاصة..».

ولقد بلغ الأمر بالجاحظ حد اعتباره الاشتغال بالتجارب العلمية التى تكتشف أسرار الله فى الكون- الطبيعة والإنسان والحيوان- عبادة **«يتفرغ لها الشيوخ الجلّة والكهول العلية، حتى يختاروا النظر فيها على التسبيح والتهليل، وقراءة القرآن، وطول الانتصاب فى الصلاة، وحتى يزعم أهله- [التجريب]- أنه فوق الحج والجهاد، وفوق كل بر واجتهاد..»**(١).

(١) الجاحظ [كتاب الحيوان]. جـ١ ص ٢١٦، ٢١٧.

لأن هذا التجريب، الذى يسعى أهله لاكتشاف أسرار الله فى الكون، هو تنفيذ لفريضة النظر، وسبيل للخشية والخشوع لمودع هذه الأسرار فى هذا الوجود، وطريق لتسخير هذه الأسرار وقوانينها فى عمران هذا الكون على النحو الذى أمر به الله..

ولقد اشتهرت فى هذا الميدان- ميدان «**المراجعة النقدية التجريبية**» لتراث القدماء- نماذج إسلامية كثيرة، منها -على سبيل المثال-:

● النقد الذى وجهه الطبيب عبد اللطيف البغدادى [٥٢٠-٦٢٨هـ ١١٢٦-١٢٣١م]، «لجالينوس» [١٢٩-١٩٩م]- أبو الطب اليونانى- الذى قرر «أن الفك الأسفل للإنسان إنما يتكون من عظمتين مجتمعتين معا».

فجاء البغدادى، وأجرى التجارب العديدة لاختبار صدق هذه المقولة.. ووصل إلى خطئها.. وكتب يقول:

«.. إلا أننا شاهدنا ألوفا من العظام والهياكل وقمنا بفحصها بدقة متناهية، وتحصّلنا على نصيب وافر من المعرفة من هذه الدراسة، وهى معرفة ما كنا لنتحصل عليها من دراسة الكتب.

وكان جالينوس من قد علّمنا بأن الفك الأسفل بتألف من عظمين يجمع بينهما نسيج ضام، غير أنا عاينا ألفى عظم، ولم نجد فيها فكا واحدا مؤلفا من عظمين.. إنه عظم واحد دون أى رفو..»

فهنا لم يقف تعارف وتعرّف العلم الإسلامى -حتى عندما يكون بإزاء الأسماء اللامعة فى سماء العلم اليونانى- عند قراءة الكتب واقتباس المعلومات، وإنما قام بتطبيق مناهج الملاحظة والاستقراء

والتجريب- التى أبدعـها وبرع فيها- فانتقـد ما وجده بالكتب، **بعدما «عاين» آلاف الحالات**- كما يقول البغدادى الطبيب.

● ونموذج آخـر، هو الطبيب ابن النفـيس [٦٨٧هـ١٢٨٨م]- الذى قام بالملاحظات والتجارب التى اكتـشفت خطأ «جالينوس» فى مسارات الدورة الدموية.. «فـقد اكتشف ابن النفـيس- لأول مرة.. وعن طريق التجربة- خطأ «جالينوس» حول دخـول الدم من خلال ثقوب الحجاب الحاجز من حجرة إلى أخرى (الأذين والبطين).

فصحح الدورة الدموية الصغرى بمساعدة التشريح.

- وهو اكتشاف انتحله بعده بثلاثة قرون الإسبانى ميخائيل سيرفت- ولقـد تحدث ابن النفـيس عن دور الملاحظة والتـجـريب فى تصحـيح المعلومات المتوارثة، فقال:

«لكى نصف مـهمـة كل عـضو على حـدة، نستنـد إلى ملاحظة دقـيقـة ودراسة صريـحة، دون الأكثرات مـا إذا كانت تلك من علوم الأولين الذين سبقونا أم لا»[1].

لقد كان العلم اليونانى- كما تقول المسـتشرقة الألمانية د. سيجريد هونكة [١٩١٣-١٩٩٩م]، تأمليا نظريا عـقليا.. وكانت التجـربة فيه غالبا محـتقرة، لأنها -كعمل يدوى- خاصـة بالعبيد!.. وفى الفكر المسيـحى، كان العـالم بأسره دنسًا لأن مملكة المسـيح ليست فـيه!..

---

(١) دكتور سيجريد هونكة [العقيدة والمعرفة] ص١٢٤، ١٢٥، ١٢٠، ١٢١، ١١٥-١١٧، ١٣٠، ١٦٥، ١٦٦. ترجمة: عمر لطفى العالم. طـبعة دمشق ١٩٨٧م. وانظر كتابنا [الإسلام فى عيون غربية] ص ٣٤٤-٣٥٢ طبعة القاهرة، ٢٠٠٥م.

وكان التجريب- فى هذا العالم الدنس- هرطقة، تطلب الحقيقة خارج الإنجيل!

«.. ولئن كان اليونانى- فى جوهره- من فلاسفة الطبيعة (مع وجود استثناءات) فإن المسلم قد غدا عالم الطبيعة بالمعنى الحرفى للكلمة، ومخترع علم الطبيعة التجريبى.. وإذا احتقر اليونانى الحر العمل البدنى- عمل الرقيق.. باعتباره غير شريف، واعتبر الاستعمال التطبيقى للمعرفة بمثابة حط من شأن الفكر، وتدنيس للمثل العليا.. فإن هذا يتعارض تمامًا مع الواقع التجريبى للمسلمين.. وبفضل هذا الفرق كان المسلمون أكثر من مجرد وسطاء للتراث اليونانى، أكثر من سعاة بريد للقديم.. فلم يرتضوا أن يرددوا كالببغاء معارف القدماء، وإنما ابتكروا شيئا خاصًا وجديدًا»[1].

إن العالم -ميدان التجريب- هو- فى الرؤية الإسلامية- خلق الله، يسبح بحمده- وإن لم نفقه تسبيحه-، ولذلك كان اكتشاف أسراره- بالتجريب- عبادة تجعل العلماء القائمين على الملاحظة والتجريب أشد الناس خشية لله، خالق هذا الكون، ومبدع هذا الوجود.

ومما له دلالة -فى هذا المعنى- أن آية ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ [فاطر: ٢٨]. إنما جاءت فى سياق الحديث عن علوم الطبيعة- وليس العلوم النظرية- علوم الماء.. والسماء.. والنبات.. والجيولوجيا.. والإنسان.. والحيوان.. والحشرات.. إلخ.. ﴿**أَلَمْ تَرَ**

---

(١) سيجريد هونكة [الله ليس كذلك]. ص٨٠ ترجمة: دكتور غريب محمد غريب. طبعة القاهرة ١٩٩٥م. و[العقيدة والمعرفة] ص ١٥٨، ١٥٩.

أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨]. ولهذه الفلسفة الإسلامية المتميزة إزاء الكون والوجود.. والتى جعلت النظر فى أسرار الوجود فريضة.. وطريقا لتسخير قوى الوجود لاستعمار الأرض وعمرانها.. كانت هذه الإضافات الخلاقة فى تعارف الحضارة الإسلامية مع علوم الأولين القدماء من أبناء الحضارات الأخرى.

هكذا تجاوز التعارف الحضارى حدود الانفتاح والاستلهام، إلى مجالات النظر.. والشك.. والنقد.. والتصحيح.. والإضافة.. والإبداع.

وهكذا تحقق التعارف بين الحضارة الإسلامية وبين مواريث الحضارات القديمة -الفارسية.. والرومانية.. واليونانية.. والهندية- منذ بزوغ شمس هذه الحضارة الإسلامية- فى عصر صدر الإسلام- وعلى امتداد التاريخ الوسيط لأمة الإسلام.. عندما أحيى المسلمون مواريث تلك الحضارات، بعد أن هددها الموات.. ثم قاموا بالتعرف عليها والتعارف معها على هذا النحو الذى ضربنا له الأمثال.

-٦-

وفى العصر الحديث.. وبعد قرون من الغفوة والعزلة، أحدثتهما «عسكرة الدولة» بسبب الغزوات الخارجية التى هددت الوجود -الصليبية.. والتترية- استفاقت الأمة على وقع الصدمة التى أحدثتها

الحملة الفرنسية- التى قادها «بونابرت» [١٨٦٩-١٨٢١م] على مصر والشرق [١٢١٣هـ-١٧٩٨م]. . وهى الصدمة التى واجهها رائد التجديد الشيخ حسن العطار [١١٨٠-١٢٥٠هـ-١٧٦٦-١٨٢٥م] بقوله:

«إن بلادنا لا بد أن تتغيّر: ويتجدد بها من العلوم والمعارف ما ليس فيها..»

ولقد أرسل العطار أنجب تلاميذه -الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى [١٢١٦-١٢٩٠هـ-١٨٠١-١٨٧٣م]، إماما للبعثة التى ذهبت إلى باريس تطلب التعرف على حضارة أوربا الحديثة [١٢٤١هـ-١٨٢٦م]. . فكان الطهطاوى أول عين للشرق الحديث على نموذج النهضة الأروبية الحديثة. . وأول من طبق المنهاج الإسلامى فى تعارف الحضارات على ما وجده فى باريس.

لقد ذهب الطهطاوى إلى باريس وهو عازم على التعرف على الحضارة الأوربية، وكسر حاجز العزلة الحضارية عن مصر والشرق، معلنا:

«أن مخالطة الأغراب، لا سيما إذا كانوا من أولى الألباب، تجلب للأوطان من المنافع العمومية العجب العجاب»[١].

ولأن الطهطاوى قد ذهب إلى باريس بعد أن استوى عوده الفكرى بالأزهر الشريف، وانطبعت هويته بالإسلام -العقيدة والشريعة والقيم والانتماء للوطن

(١) الطهطاوى [الأعمال الكاملة] جـ١ ص ١٢٠. دراسة وتحقيق: دكتور محمد عمارة. طبعة القاهرة ٢٠١٠م.

والأمـة- فإن الرجل لم ينبـهر ولم يـندهش بما رأى فى باريس من حضـارة مزدهرة، كانت -يومئذ- تخطف أبصار الكثيرين.. ولذلك، ميّز الطهطاوى- وهو رائد التـعارف علـى الحضـارة الأوربية الحـديثـة، بين العلوم الدقـيقـة والمحايدة- التى سـماها «علوم التـمدن المدنى».. والتى هى شـرط فى تقدم الوطن- تلك التى لا تختلف حقائقها وقوانينها باختلاف الديانات والفلسفات والأوطان- وهى العلوم التى سبق للأوربيين- إبان نهضـتهم- أن أخذوها عن المسلمين- الذين سبق وأخذوها عن الحضـارات القديمة- .. ميّز الطهطاوى- فى التعارف الحضارى- بين هذه العلوم- التى هى مـشترك إنسانى عام- وبين ماالدى أهل باريس وأوربا من فلسفـات وضعية لادينية، تعتـمد العقل المجرد من الشرع، والنواميس الطبيعية المعزولة عن نبأ السماء.. والتى تخالف فلسفة الإسلام، التى يتزاوج فيها العقل والنقل، والحكمة والشريعة..

ولقـد أدرك الطهطاوى أن هذه الفلسـفة الوضـعـية الأوربيـة- التى وصفهـا بأنها «**حشـوات ضلالـية**»- قد همَّـشت النصرانية، وأفقـدتها المصداقية والتأثير على سلوك الأوربيين..

كما ميّـز -فى تعارفه وتعرّفه على الحضـارة الأوربية- بين التجارب الإنسانية- فى النظم الدستورية والنيابية- التى تضع مبادئ الحرية وقيمها فى الممارسـة والتطبيق وتنظم شورى الأمة وسلطات أهل الحـل والعقد فيها.. ميّز بين هذه التجارب وبين خصوصيات أهل باريس فى العقائد والفلسفات ومنظومة القيم والأخلاق..

ولـم يغفل الطهطاوى عن أنه يتعامل مع حضارة ذات نزعة امبريالية، تسعى إلى الغزو والاستعمار.. فنبـه على ضرورة التمييز- فى التعارف الحضارى- بين استلهام «علوم التمـدن المدنى» و«الخبرات الإنسانية التى تحققت فوائدها».. وبين النـزعة الإمبريالية لهذه الحضـارة.. ولقد عبر عن ذلك شعرا ونثرا، فقال:

نعم، بيننا جنسيـة الود والصفـا ولكننى لـم أُلـفـهـا علّة الضّم!

ذلك «**أن الأمة المصرية أصعب على نفوسها الانقياد للأغراب**»[1]

ولقد نبه الطهطاوى قومه -وهو يتـعرف على الحضارة الأوربية- إلى وقوف المسلمين- يومئذ- بمعنى «العلم» عند علوم النقل.. والآليات.. دون علوم المقاصدة وعـلوم التمدن المدنى، التى لها مـدخل فى عمران الأوطان وتقدمها.. فقال:

«وسـيظهـر لك فضل هؤلاء النـصارى فى العلوم عـمن عـداهم، وبذلك تعرف خلو بلادنا من كـثير منها، وأن الجـامع الأزهر المعمور، بمصر القـاهرة، وجامع بنى أميـة، بالشام، وجامع الزيتـونة، بتونس، وجامع القرويـين، بفأس، ومدارس بخارى، ونحو ذلـك، كلها زاخرة بالعلوم النقلية وبعض العلوم الـعقلية، كعلوم العربيـة والمنطق، ونحوه من العلوم الآلية»[2].

---

(١) الطهطاوى [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق دكتور محمد عمارة طبعة القاهرة ٢٠١٠. جـ١ ص١٢١.

(٢) المصدر السابق. جـ١ ص ١٢٩.

وكما تعرّف الطهطاوى على علـوم التمدن المدنى الأوربية، التى هى شرط فى عمران الأرض وتقدم الأوطان. . وعلى التجارب الإنسانية فى النظم الدستورية والنـيابية. . كذلك تعرّف على إبداعـات الفرنسيين فى المسرح -«التياتر»- الذى أصبح مدرسة لتعليم الجماهير. .

ولقد خلص الطهطاوى- فى هذا التعـارف بين الشرق الإسلامى وبين النموذج الحضارى الأوربى -إلى صيغة دعا فيها إلى استلهام علوم التمدن المدنى الأوربية. . وهى -بعبارته: **«العلوم الشريفة، التى يُتنفع بـها ويُحتاج إليها فى الـدولة والوطن، كعلم الطب، والهندسة، والرياضيـات، والفلكيات، والطبيعيـات، والجغرافيا، والتاريخ، وعلوم الإدارة، والاقـتصاد فى المصاريف، والفنون العسكرية، وكل ما له مدخل فى فن أو صناعة»**[1].

دعـا إلى استلهـام هذه العلوم «الشـريفـة». . فى ذات الوقت الذى رفض فيه الفلسفة الوضعـية اللادينية، التى تقف عند العقل المجرد عن الشرع والدين. . تلك التى همشت النصرانية فى أوربا. .

خلُص الطهطاوى إلى هذه المعادلة -فى تعارفه وتعرّفه على الحضارة الأوربية- وصاغها هذه الصياغة الدقيقة والمتوازنة، التى قال فيها:

أيوجـد مـثل باريـس ديار — شمـوس العلم فـيها لا تغـيب

وليل الكـفـر ليس له صـبـاح — أمـا هذا وحـقكم عـجـيـب!

---

(١) الطهطاوى [الأعـمـال الكاملة] دراسـة وتحـقـيق دكـتور مـحـمـد عـمارة طبـعـة القاهرة ٢٠١٠. جـ١ـ ص ٢٨٥.

فهذه المدينة، كباقى مدن فرنسا وبلاد الإفرنج العظيمة مشحونة بكثير من الفواحش والبدع والضلالات، وإن كانت من أحكم بلاد الدنيا وديار العلوم البرانية:

إن أكثر أهل هذه المدينة، إنما له من دين النصرانية الاسم فقط، حيث لا يتبع دينه، ولا غيرة له عليه، بل هو من الفرق المُحسِّنة والمُقبِّحة بالعقل، أو فرقة من الإباحيين الذين يقولون إن كل عمل يأذن فيه العقل صواب، ولذلك فهو لا يصدّق بشىء مما فى كتب أهل الكتاب لخروجه عن الأمور الطبيعية.. ولهم فى الفلسفة حشوات ضلالية مخالفة لكل الكتب السماوية» . .

وبعد وصف الطهطاوى ورصده لمكونات هذه المعادلة -فى النموذج الحضارى الأوربى: -

- الحكمة والإحكام فى علوم التمدن المدنى، التى لا تغيب ولاتغرب شموسها فى هذه البلاد.

- وتهميش الدين، وتأليه العقل المجرد والنواميس الطبيعية، وتغييب الشرع. . حتى أن ليل الكفر ليس له صباح! .

بعد هذا التصوير للنهضة العلمية فى ظل الفلسفة الوضعية اللادينية -المليئة بالحشوات الضلالية: - . . نبه الطهطاوى على توازن النموذج الحضارى الإسلامى، الجامع بين العقل والشرع. . بين الأمور المعقولة والأمور التعبدية. . والذى جعل السياسة شرعية، لا تحتكم -فقط- إلى الدنيوية العلمانية. . نبه الطهطاوى إلى هذا النموذج الإسلامى المقابل للنموذج الأوربى- فقال:

«إن تحسين النواميس الطبيعية لا يُعتدّ به إلا إذا قرره الشرع، والتكاليف الشرعية والسياسية التى عليها مدار نظام العالم، مؤسسة على التكاليف العقلية الصحيحة الخالية من الموانع والشبهات، لأن الشريعة والسياسة مبنيتان على الحكمة المعقولة لنا أو التعبدية التى يعلم حكمتها المولى سبحانه وتعالى. وليس لنا أن نعتمد على ما يحسنه العقل أو يقبحه إلا إذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه.

والذى يرشد إلى تزكية النفس هو سياسة الشرع، ومرجعها الكتاب العزيز الجامع لأنواع المطلوب من المعقول مع ما اشتمل عليه من السياسات المحتاج إليها فى نظام أحوال الخلق، كشرع الزواجر المفضية إلى حفظ الأديان والعقول والأنساب والأموال، وشرع ما يدفع الحاجة على أقرب وجه يحصل به الغرض، كالبيع والإجارة والزواج وأصول أحكامه.

فكل رياضة لم تكن بسياسة الشرع لا تثمر العاقبة الحسنى. ولا عبرة بالنفوس القاصرة الذين حكّموا عقولهم بما اكتسبوه من الخواطر التى ركنوا إليها تحسينا وتقبيحا، وظنوا أنهم فازوا بالمقصود بتعدى الحدود. فينبغى تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع، لا بطرق العقول المجردة. ومعلوم أن الشرع الشريف لا يحظرجلب المنافع ولا درء المفاسد، ولا ينافى المتجددات التى يخترعها من منحهم الله العقل وألهمهم الصناعة»[1].

ولقد ظل الطهطاوى وفيا لهذا الموقف النقدى من النموذج الحضارى الأوربى يستلهم إيجابياته . . ويعارض سلبياته . .

---

(١) الطهطاوى [الأعمال الكاملة]. جـ٢ ص١٥٩، ١٦٠، ٧٩، ٣٢، ٤٧٧، ٣٨٦، ٣٨٧ طبعة بيروت ١٩٧٣م.

● فعندمـا عاد إلى مـصر، ورأس «قلم الترجـمة» دفع إلى مطبـعة الدولة بقائمـتين من الكتب لطباعتـها. . الأولى بالمترجـمات فى علوم التمـدن المدنى، التى هى شرط عمارة الوطن وتقـدمه، والثانيـة خاصة بكتب التـراث الإسلامى التى تجـدد حبـال التواصل بين العـقل المسلم الحديث وبين نموذجه الحضارى الإسلامى الأصيل.

● وعندما بدأت بواكير تسلل القوانين الوضـعية الأوربية إلى مصر- على عهد الخديوى سعيد باشا [١٢٧٠-١٢٧٩هـ- ١٨٥٤- ١٨٦٣م]- فى المحـاكم التـجارية- بالمـوانى- للفصـل فى المنازعات بـين التجـار الأجانب والتـجار المصـريين. . عارض الطهطاوى هذا التسـلل للقانون الوضعى الذى يزيح فـقه المعامـلات الإسلاميـة عن عرشه الطبـيعى. . فكتب معارضا. . ومعللا معارضته. . فقال:

«.. مع أن المعامـلات الفقهيـة لو انتظمت وجرى عليهـا العمل لما أَخَلَّت بالحقـوق، بتوفـيقـها على الوقت والحـالة. ومن أمعن النظـر فى كتب الفـقه الإسـلاميـة ظهـر له أنهـا لا تخـلو من تنظيم الوسـائل النـافـعة من المنافع العمومية، حيث بوبوا للمعاملات الشرعية أبوابا مستوعبة للأحكام التجارية، كالشركة، والمضاربة، والقرض، والمخابرة، والعارية، والصلح، وغير ذلك.

إن بحر الشريعة الغراء، على تفرّع مـشارعه، لم يغادر من أمهات المسائل صغيـرة ولاكبيرة إلا أحـصاها وأحياها بالسـقى والريّ، ولم تخرج الأحكام

السياسية عن المذاهب الشرعية، لأنها أصل، وجميع مذاهب السياسات عنها بمنزلة الفرع..»[1].

***

تلك هى الرؤية الإسلامية لقانون العلاقات بين الحضارات.. الرؤية التى:

● ترفض إقامة الأسوار الصينية العازلة بين الحضارات، بالتركيز- فقط- على الخصوصيات التى تتميز بها كل حضارة من هذه الحضارات.

● وترفض التبعية والتقليد والتماهى بين الحضارات، انطلاقا من إبراز ما بين هذه الحضارات من «عموم» وإغفال ما لكل منها من «خصوصيات».. ذلك الذى يفضى -عمليا- إلى هيمنة الحضارات القوية على غيرها من الحضارات، بمنطق الداروينية، التى تجعل البقاء للأقوى، زاعمة أن هذا الأقوى هو الأصلح:-

● لتصل هذه الرؤية الإسلامية- فى تعارف الحضارات- إلى تحديد سمات العموم، التى يجب أن تكون ميدانا للتعارف والتفاعل بين الحضارات، مع العناية بقسمات الخصوصيات التى تتميز بها كل حضارة من هذه الحضارات، والتى يفضى الاهتمام بها إلى بقاء التنوع والتمايز والتعدد بين الحضارات التى تبدعها الأمم والشعوب.

---

(١) الطهطاوى [الأعمال الكاملة]. جـ١ ٥٤٤، ٣٦٩، ٣٧٠، ٥٣٣. طبعة بيروت ١٩٧٣م.

هكذا كان موقف الحضارة الإسلامية من هذه القضية، التى كانت ولا تزال مثيرة للجدل والخلاف.. وتلك هى نماذج للتطبيقات التاريخية، التى شهدها التاريخ الإسلامى فى تعارف الحضارات، منذ عصر صدر الإسلام وحتى عصرنا الحديث..

-٧-

ولم يشذْ عن هذا إلا نفر قليل من الذين أنبهروا بالنموذج الغربى، إبان تراجع الدولة العثمانية واضمحلالها.. فاجتهدوا اجتهاداً خاطئًا سرعان ما تراجع أغلبهم عنه عندما نضجوا فكريًا.. ومن أبرز هذه النماذج: الشيخ على عبد الرازق [١٣٠٥- ١٣٨٦هـ- ١٨٨٧-١٩٦٦م].. الذى أحدث كتابه [الإسلام وأصول الحكم] -سنة ١٩٢٥م- فى العام التالى لإسقاط الخلافة الإسلامية، وإزالة رمزها، وتحطيم وعائها، لأول مرة فى تاريخ الإسلام-.. أحدث هذا الكتاب، الذى حاول- لأول مرة فى تاريخنا الفكرى- علمنة الإسلام.. وإهالة التراب على نموذج الخلافة الإسلامية وتاريخها- أحدث أكبر المعارك الفكرية فى القرن العشرين.. كما مثل هذا الكتاب -على صغر حجمه.. وكثرة الردود عليه- ولا يزال يمثل- «إنجيل» العلمانيين العرب والمسلمين حتى هذه اللحظات!..

* لقد ذهب هذا الكتاب إلى علمنة الإسلام، وإنكار علاقته بالسياسة والدولة والحكومة وبناء الوطن والأمة.. فقال:

«إن محمـداً -ﷺ- ما كان إلا رسولا لدعـوة دينية خالصة للـدين.. غير مشـوبة بشيء من الحكم. وإنه لم يقم بتأسيس مملكـة بالمعنى الذى يفـهم سياسة من هذه الكلمة ومـرادفاتها. ما كـان إلا رسولا كإخـوانه الخالين من الرسل.. وما كان ملكًا ولا مؤسس دولة ولا داعيًا إلى مُلك..

وإن ظواهر القرآن المجيـد تؤيد القول بأن النبى -ﷺ- لم يكن له شأن فى الملك السياسى، وآياته متضـافرة على أن عمله السـماوى لم يتجـاوز حدود البـلاغ المجـرد من كل مـعـانى السلـطان.. ولاية الرسـول على قـومـه ولاية روحية.. وولاية الحاكم ولاية مـادية.. تلك ولاية هداية إلى الله وإرشاد إليه، وهذه ولاية تدبير لمـصالح الحيـاة وعمارة الأرض، تلك للديـن وهذه للدنيا، تلك لله، وهذه للناس، تلك زعامة دينية، وهذه زعامة سياسية..

وإن تلك الوحدة العربية التى وُجـدت زمن النبى -عليه السلام- لم تكن وحدة سياسية بأى وجـه من الوجوه، ولا كان فيـها معنى من مـعانى الدولة والحكومة، بل لم تَعْدُ أبدا أن تكون وحدة دينية خالصة من شوائب السياسة، وحدة الإيمان والمذهب الدينى، لا وحـدة الدولة ومذاهب الملك. يدلك على هذا سيرة النبى ﷺ فما عرفنا أنه تعرض لشيء من سياسة تلك الأمم الشتيتة، ولا غير شيئًا من أساليب الحكم عندهم، ولا مما كان لكل قبيلة منهم من نظام إدارى أو قضـائى.. ولا سمعنا أنه عزل واليـا، ولا عين قاضيـا.. إنهم كانوا دولا شـتى، على قـدر ما تسـمح به حـيـاة العرب يـومئـذ من مـعنى الدولة والحكومـة. تلك حال العـرب يوم لحق عليه السـلام بالرفيق الأعلـى، وحدة دينية عامة من تحتها دول تامة التباين إلا قليلا..

هيهات هيهات، لم تكن ثمة حكومة ولا دولة، ولا شيء من نزعات السياسة، ولا أغراض الملوك والأمراء.. لم يكن هناك ترتيب حكومى، ولم يكن ثمة ولاة ولا قضاة ولا ديوان.. إلخ.. كانت زعامة دينية.. ويا بعد ما بين السياسة والدين»[1].

هكذا قال كتاب [الإسلام وأصول الحكم] عن علاقة الإسلام بالدولة والسياسة والحكم والتشريع والقانون.

● وعن الخلافة الإسلامية، وطبيعة السلطة فيها، صور كتاب [الإسلام وأصول الحكم] هذه الخلافة نظاما ثيوقراطيا كهنوتيا، قائما على استبداد القوة الرهيبة -حتى فى عهد الخلفاء الراشدين-!.. فقال:

«إن الخليفة ولايته عامة مطلقة.. وهو يقوم فى منصبه مقام الرسول ﷺ وينزل من أمته منزلة الرسول من المؤمنين.. فولايته كولاية الله تعالى، وولاية رسوله.. بل لقد رفعه المسلمون فوق صف البشر، ووضعوه غير بعيد من مقام العزة الإلهية.. ولم ترتكز الخلافة -[على مر تاريخها.. وحتى فى عهدها الراشد]- إلا على أساس القوة الرهيبة»[2].

● كما نفى كتاب [الإسلام وأصول الحكم] أية علاقة للإسلام

---

(١) على عبد الرازق [الإسلام وأصول الحكم] ص ٤٨- ٨٥ طبعة القاهرة سنة ١٩٢٥م. [ولقد قامت الكتب التى صدرت ردا على كلام على عبد الرازق هذا بتفنيد هذا الإنكار لإقامة الرسول ﷺ دولة وحكومة.. انظر كتبنا [الإسلام والسياسة] و[معركة الإسلام وأصول الحكم] و[إسلاميات السنهورى باشا].

(٢) [الإسلام وأصول الحكم] ص ٢-٨، ٢٥.

بمرجعية الحكومة ونظام الحكم، وبلغ حد القول بأن للمسلمين أن يقيموا فى مجتمعاتهم أية حكومة وأى نظام وأية مرجعية حتى ولو كانت البلشفية -الماركسية اللينينية المادية-!.. فقال:

«إن للمسلمين أن يقيموا فى مجتمعاتهم أية حكومة، فى أية صورة كانت الحكومة، ومن أى نوع، مطلقة، أو مقيدة، فردية أو جمهورية، استبدادية أو شورية ديمقراطية أو اشتراكية أو بلشفية»[1].

هكذا تماهى كتاب [الإسلام وأصول الحكم] مع النموذج الغربى -الوضعى العلمانى-.. وصور الإسلام مسيحية، يدع ما لقيصر لقيصر مكتفيا بما لله.. حتى لقد وصف هذه العبارة الإنجيلية -«دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله»- بالعبارة البالغة!.

***

لكن التطورات والملابسات التى أحاطت بالأفكار الصادمة والشاذة التى حواها هذا الكتاب، سرعان ما عجلت بالعدول عن مقولاته.. بل والتأكيد على نقائض هذه المقولات:

● ففى الأول من سبتمبر سنة ١٩٢٥م -أى بعد ستة أشهر من صدور هذا الكتاب- أعلن الشيخ على عبد الرازق -فى حديث مع صحيفة «السياسة» -أن الإسلام دين تشريعى- أى أنه ليس مجرد عقيدة ورسالة روحية -وأن شريعته لابد أن تنفذ فى المجتمعات الإسلامية- أى

(١) [الإسلام وأصول الحكم] ص ٣٥.

أنه لابد من حكومة إسلامية وسلطة تنفيذية إسلامية تطبق شريعة الإسلام -أيا كان شكل هذه الحكومة والسلطة، الملتزمة بالمرجعية الشرعية الإسلامية.. وبنص عبارته قال:

«إن الإسلام دين تشريعى، وإنه يجب على المسلمين إقامة شرائعه وحدوده، وإن الله خاطبهم جميعًا بذلك، ولكن الله لم يقيدهم بشكل مخصوص من أشكال الحكومات، بل ترك لهم الاختيار فى ذلك وفق مقتضيات الزمن، وحيث تكون المصلحة»(١).

● وبعد سبع سنوات على صدور كتاب [الإسلام وأصول الحكم] - الذى رفض الشيخ على عبد الرازق إعادة طبعه طوال حياته؟! -ألقى الشيخ على- سنة ١٩٣٢م - محاضرة بقاعة «إيوارت» -بالجامعة الأمريكية- بالقاهرة- أكد فيها على أن مصر- على مَرّ تاريخها- كانت ملتزمة-كدولة وحكومة- دائمًا وأبدًا- بحاكمية القرآن الكريم والشريعة الإسلامية- فى حكوماتها وقانونها-.. فقال:

«لقد جرت مصر منذ العصور الأولى على أن يكون الحكم فيها شرعيًا، يرجع إلى أحكام الإسلام والأوضاع الإسلامية، وكان المصريون يفزعون أن يحتكموا إلى غير الإسلام، لأن الحكم بغير ما أنزل الله كفر صريح فى القرآن»(٢).

---

(١) صحيفة «السياسة» فى ١ سبتمبر سنة ١٩٢٥م.

(٢) كتاب [حضارة مصر الحديثة] طبعة الجامعة الأمريكية- المطبعة العصرية- القاهرة سنة ١٩٣٣م.

● وفى سنة ١٩٤٦م كان الشيخ على عبد الرازق عضواً بمجلس النواب.. وعُرض على المجلس قانون للأوقاف، رأى فيه بعض الثغرات التى تمس مرجعية الشريعة الإسلامية، وتمس الفقه الإسلامى -وهما - برأيه- الرابطة الأقوى للمسلمين -.. فحذر الشيخ على عبد الرازق من هذا الخطر.. وقال -مخاطبًا أعضاء مجلس النواب-:

«إنكم، فى هذا التشريع، توشكون أن تفتحوا فى باب التشريع الإسلامى حدثًا جديداً، أخشى أن يكون بعيد العواقب، وأخشى أن تكون أقرب الآثار المترتبة عليه أن يمزق الفقه الإسلامى، الذى هو الرابطة الأقوى بين الأمم الإسلامية»[(١)].

● وفى سنة ١٩٥١م وصف الشيخ على عبد الرازق عبارة: «الإسلام رسالة روحية» -التى تناولها كتاب [الإسلام وأصول الحكم] بالتفصيل فى باب عنوانه: «دين لا دولة ورسالة لا حكم» -وصفها بأنها كلمة شيطانية ألقاها الشيطان على لسانه!! فقال، معلقًا على حوار دار بينه وبين الأستاذ أحمد أمين [١٢٩٥- ١٣٧٣هـ ١٨٧٨- ١٩٥٤م] أعاد فيه ذكر هذه العبارة -قال:

«.. وما أرى فى الأمر إلا أن هناك خطأ فى التعبير جرى به لسانى فى المجلس الذى كنا نتجادل فيه ونستعرض حال المسلمين. وما أدرى كيف تسربت كلمة روحانية الإسلام إلى لسانى يومئذ؟!، ولم أرد معناها، ولم يكن يخطر لى ببال.

---

(١) مضبطة مجلس النواب المصرى سنة ١٩٤٦م.

بل لعله الشيطان ألقى فى حديثى بتلك الكلمة.. وللشيطان أحيانًا كلمات يلقيها على ألسنة بعض الناس»[1].

***

هكذا تم التراجع عن أخطر المقولات التى حملها كتاب [الإسلام وأصول الحكم] سنة ١٩٢٥م- والتى حاولت علمنة الإسلام.. والفصل بينه وبين الحكم والدولة والسياسة والتشريع والقانون.. وتحويله إلى مسيحية تدع ما لقيصر لقيصر -حتى ولو كان قيصر هذا بلشفيا-.. والاكتفاء بروحانية الدين والشعائر والعبادات..

كما حاولت هذه المقولات تشويه صورة الخلافة الإسلامية.. وإنكار وجود مرجعية إسلامية لنظام الخلافة والحكم فى بلاد الإسلام..

تم التراجع -الواضح والحاسم والصريح- عن هذه المقولات.. وحدث الإياب إلى النموذج الإسلامى فى الحكم والسياسة والتشريع والقانون.

***

-٨-

وكان الدكتور طه حسين [١٣٠٦- ١٣٩٣هـ ١٨٨٩- ١٩٧٣م] أبرز الفرسان الذين دافعوا -فى صحيفة «السياسة» -عن كتاب [الإسلام وأصول الحكم].. بل لقد اعترف سنة ١٩٧١م -بأنه شريك فى تأليف هذا الكتاب.. وبنص عبارته:

---

(١) على عبد الرازق «تعليق على مقال الاجتهاد فى الإسلام» مجلة «رسالة الإسلام» عدد مايو ١٩٥١م.

«لقد قرأت أصول كتاب الشيخ على، قبل طبعه، ثلاث مرات، وعدّلت فيه كثيرًا»[1].

● كما تبنى طه حسين الفكرة المحورية لهذا الكتاب -نفى علاقة الإسلام بالدولة والحكم- فى كتابه [مستقبل الثقافة فى مصر] سنة ١٩٣٨م- عندما قال:

«إن السياسة شىء والدين شىء آخر.. وإن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساسًا للوحدة السياسية ولا قوامًا لتكوين الدول»[2].

● ومضى طه حسين -فى مرحلة انبهاره بالنموذج الحضارى الغربى.. ودعوته للتماهى مع هذا النموذج، والاستعارة لسماته وقسماته -مضى فحاول التأصيل لوحدة الشرق مع الغرب- وحدة العقل ومكوناته.. ووحدة الحضارة -قديمًا وحديثًا- فقال:

«إن العقل الشرقى هو كالعقل الأوربى، مرده إلى عناصر ثلاثة:

١ - حضارة اليونان، وما فيها من أدب وفلسفة وفن.

٢- وحضارة الرومان، وما فيها من سياسة وفقه.

٣- والمسيحية، وما فيها من دعوة إلى الخير وحث على الإحسان.

---

(١) دكتور محمد الدسوقى [طه حسين يتحدث عن أعلام عصره] ص ٧٠، ٧١. طبعة دار المعارف -سلسلة إقرأ- القاهرة سنة ١٩٩٢م. وانظر كتابنا [الإسلام بين التنوير والتزوير] طبعة دار الشروق سنة ١٩٩٥م.

(٢) [مستقبل الثقافة فى مصر] ص ١٧، ١٦.

وإن السبيل واضحة بينة مستقيمة. ليس فيها عوج ولا التواء، وهى واحدة فذة ليس فيها تعدد. وهى أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم فى الحضارة، خيرها وشرها حلوها ومرها، ما يجب منها وما يُكره، ما يُحمد منها وما يُعاب.

وإن الإسلام قد تقبل الحضارة اليونانية، فلم لا يتقبل الحضارة الفرنسية؟ والحضارة الغربية والفرنسية قائمتان على أساس واحد هو الحضارة اليونانية اللاتينية. وهو فى نهاية الأمر الحضارة الكلاسيكية..

لقد التزمنا أمام أوربا أن نذهب مذهبها فى الحكم، ونسير سيرتها فى الإدارة، ونسلك طريقها فى التشريع.. التزمنا هذا كله أمام أوربا.. وهل كان إعضاء معاهدة الاستقلال -[سنة ١٩٣٦م] ومعاهد إلغاء الامتيازات. [سنة ١٩٣٨م] -إلا التزاما صريحًا قاطعًا أمام العالم المتحضر بأننا سنسير سيرة الأوربيين فى الحكم والإدارة والتشريع»(١)؟!

● وفى سبيل التماهى مع النموذج الغربى... انتقد طه حسين محاولات الشيخ محمد عبده [١٢٦٦- ١٣٢٣هـ ١٨٤٩- ١٩٠٥م] «التوفيق بين عبارات القرآن وحقائق العلم.. معتبراً هذه المحاولات «أفكارا بالية»: .. لأن الناس -برأيه- «يندفعون بابتهاج نحو الحضارة الغربية، ويتخذونها مثلاً أعلى.. وقليل هم المسلمون الذين يهتمون بالتوفيق بين إيمانهم والمعارف التى حصّلوها.. لذلك، صار المتمسكون بآراء محمد عبده

(١) [مستقبل الثقافة فى مصر] جـ١ ص ٢٩، ٤٥، ٣٦، ١٧.

وقاسم أمين [١٢٨٠ - ١٣٢٦هـ ١٨٦٣-١٩٠٨م] يُعدون محافظين، بل ويُدرجون أحيانًا بين المتخلفين»[1]!

● وكان طه حسين قد ذهب على طريق التماهى مع الحضارة الغربية -القديمة والحديثة، إلى تفجير معركة فكرية كبرى حول القرآن الكريم، فى العام التالى لصدور كتاب [الإسلام وأصول الحكم]. .

ففى سنة ١٩٢٦م أصدر كتابه [فى الشعر الجاهلى] وفى سبيل التشكيك فى صدق نسبة كثير من هذا الشعر إلى من نُسب إليهم من الشعراء. . نحا طه حسين نحو الأوربيين الذين استخدموا شك ديكارت [١٥٩٠ - ١٦٥٠م] فى نفى الصدق التاريخى عن أسفار العهدين القديم والجديد. . فتماهى طه حسين مع هذا المنهج الديكارتى فى التعامل مع القرآن الكريم. . فشكك فى الصدق التاريخى لما جاء بالقرآن عن:

١- الرحلة الحجازية لأبى الأنبياء إبراهيم -عليه السلام-.

٢- وإقامته قواعد البيت الحرام هو وابنه إسماعيل -عليه السلام-.

٣- وحديث القرآن عن صلة الإسلام بملة إبراهيم والحنيفية والحنفاء[2].

ولقد أثارت هذه الأفكار الصادمة معركة فكرية كبرى، شارك فيها عدد كبير من شيوخ العلم والفكر -من بينهم الشيخ محمد الخضر

(١) [من الشاطئ الآخر] ص ٣٦، ٣٧، ٦٢.

(٢) طه حسين [فى الشعر الجاهلى] ص ٨٠، ٨١. طبعة القاهرة سنة ١٩٢٦م.

حسين [١٢٩٣- ١٣٧٧هـ ١٨٧٦- ١٩٥٨م] والعلامة محمد فريد وجدى [١٢٩٥- ١٣٧٣هـ ١٨٧٨- ١٩٥٤م] -ونوقش الأمر فى البرلمان المصرى.. وأحيل طه حسين إلى التحقيق أمام النيابة العامة.. التى قررت وقوع الجناية بحق القرآن الكريم، لكن دون توفر القصد الجنائى لدى طه حسين.. وبنص عبارة رئيس النيابة -محمد نور-: فإن الباحث حذا فى بحثه «حذو العلماء من الغربيين. ولكن لشدة تأثر نفسه بما أخذ عنهم قد تورط فى بحثه حتى تخيل حقًا ما ليس بحق، أومازال فى حاجة إلى إثبات أنه حق، فكان يجب عليه أن يسير على مهل، وأن يحتاط فى سيره حتى لا يضل، ولكنه أقدم بغير احتياط فكانت النتيجة غير محمودة..

إن غرض المؤلف لم يكن مجرد الطعن والتعدى على الدين، بل إن **العبارات الماسة** بالدين، التى أوردها فى بعض المواضع من كتابه، إنما أوردها فى سبيل البحث العلمى، مع اعتقاده أن بحثه يقتضيها، وحيث أنه، من ذلك، يكون القصد الجنائى غير متوفر، لذلك تحفظ الأوراق إداريًا»[١].

لقد قررت النيابة العامة ثبوت «**جناية التورط فى الطعن والتعدى على الدين**» -**من طه حسين- وعزت ذلك إلى «حذوه حذو العلماء من الغربيين، وشدة تأثر نفسه بما أخذ عنهم**».. أى أن سبب الجناية هو التماهى مع النموذج الغربى فى التعامل مع المقدس «دون تمهل ولا احتياط»..

(١) دكتور جابر عصفور [التنوير يواجه الظلام] ص ١٣، ١٤ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م.

ولقد اعترف طه حسين -نفسه- بهذا الذى صنعه فى كتابه هذا. . فقال -فى مقام آخر-:

« لقد شككت فى بعض المعتقدات التى لا تمس الدين، وإن كانت قد ذُكرت فى القرآن أو فى الأحاديث النبوية. وكانت الصدمة قاسية، والاستنكار واسع النطاق»[١].

هكذا -وعلى هذا النحو- سار الدكتور طه حسين على طريق التماهى مع النموذج الغربى -الوضعى العلمانى- مدعيا وحدة العقل الشرقى والغربى -قديما وحديثا- ووحدة الحضارة -قديما وحديثا-. . وطبق على المقدس الإسلامى مناهج الشك التى طبقها الأوربيون على أسفار العهدين القديم والجديد. . لأن الإسلام -بزعمه- هو كالمسيحية. . ولأن القرآن لم يغير من يونانية العقل الشرقى، لأنه -مثل الإنجيل- الذى لم يغير من يونانية العقل الأوربى[٢].

لكن. . لأن طه حسين لم يكن «عميلا حضاريا». . وإنما كان منبهراً بالنموذج الحضارى الغربى، الذى قارن بين ازدهاره -يومئذ- وبين «التخلف العثمانى» -الذى حسبه على الإسلام-. . فلقد قاده هذا «الانبهار» إلى هذه الاجتهادات الخاطئة. . لذلك، عاد إلى جذوره الإسلامية -عودة المجتهد المجدد-. . وطوى هذه الصفحات من حياته.

الفكرة الأولى:

---

(١) [من الشاطئ الآخر] ص ٦٧.

(٢) [مستقبل الثقافة فى مصر] جـ١ ص ٢١، ٢٢.

١- لقد حذف السطور -الثمانية والعشرين- التى حملت التشكيك فى الصدق التاريخى للقرآن الكريم.. وغير عنوان الكتاب -إلى [فى الأدب الجاهلى] -بعد أن كان عنوانه [فى الشعر الجاهلى].. وضم إلى محتواه دراسات جديدة، جعلت منه كتابًا جديدًا.

٢- وطوى صفحة ما جاء بكتابه [مستقبل الثقافة فى مصر] عن يونانية العقل الشرقى، والالتزام بالنموذج الحضارى الغربى فى السياسة والإدارة والتشريع.. وعلمنة الإسلام، والقول «بأن السياسة شيء والدين شيء آخر.. وأن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساسًا للوحدة السياسية ولا قوامًا لتكوين الدول».

طوى هذه الصفحة.. وذلك:

● بالامتناع عن إعادة طبع هذا الكتاب طوال حياته -على عكس كتبه الأخرى..

● وقوله -عندما سئل عنه- فى أول مارس سنة ١٩٧١م:

«**إنه قُدُم قوى، عاوز يتجدد، ويجب أعود إليه، وأصلّح فيه بعض حاجات، وأضيف**»(١).

● وبعد الإنكار لعلاقة الإسلام بالسياسة وبناء الوطن والدولة.. وصل طه حسين، فى الإياب الفكرى، إلى الدعوة -أثناء مناقشات لجنة وضع الدستور سنة ١٩٥٣م -إلى وجوب الالتزام- فى الدستور والقانون- بحاكمية القرآن الكريم -كل القرآن الكريم -فقال:

---

(١) طه حسين -من حديث له فى [الأهرام] بتاريخ أول ماروس سنة ١٩٧١م.

«إنه من المقطوع به أن الأغلبية لن تقبل أن تخرج عند وضع الدستور، على ما أمر به الإسلام.. وليس هناك أى مقتضى يسمح لنا بأن نعدل عن نص القرآن.. وإنه إذا وجد نص دينى صريح، فالحكمة والواجب يقتضيان ألا نعارض النص، وأن نكون من الحكمة ومن الاحتياط بحيث لا نضر الناس فى شعورهم، ولا فى ضمائرهم، ولا فى دينهم.. وإذا احترمت الدولة الإسلام فلابد أن تحترمه جملة وتفصيلاً.. ولا يكون الإيمان إيمانًا ببعض الكتاب وكفراً ببعضه الآخر»[1].

● وبعد أن كان طه حسين يدافع -سنة ١٩٢٥م- عن كتاب [الإسلام وأصول الحكم] الذى وصف الخلافة الإسلامية«بالكهانة المستبدة» وأن الخليفة -عند المسلمين- «ولايته كولاية الله تعالى وولاية الرسول.. بل لقد رفعه المسلمون فوق صف البشر، ووضعوه غير بعيد من مقام العزة الإلهية»[2].

بعد أن كان طه حسين يدافع عن هذه الصورة -الغريبة- للخلافة الإسلامية.. عاد -سنة ١٩٥٥م- فى كتابه [الفتنة الكبرى] ليقدم صورة ناصعة لهذه الخلافة الإسلامية، كنظام مدنى، ملتزم بالشريعة الإسلامية- وفى ذلك قال:

«قد يظن بعض الذين تخدعهم ظواهر الأمور أن نظام الحكم الإسلامى -[فى العهد النبوى وفى الخلافة]- كان نظامًا ثيوقراطيا، يستمد سلطانه من الله، ومن الله وحده، ولا شأن للناس فى هذا السلطان.. ولا شك أن هذا

---

(١) طه حسين [لجنة مشروع الدستور] -الجلسة السابعة -ص ٨١، ١٢١. طبعة وزارة الإرشاد القومى- القاهرة بدون تاريخ.

(٢) [الإسلام وأصول الحكم] ص ٢- ٨.

الرأى هو أبعد الآراء عن الصواب.. ذلك أن الإسلام لم يسلب الناس حريتهم، ولم يملك عليهم أمرهم كله، وإنما ترك لهم حريتهم فى الحدود التى رسمها لهم.. لقد ترك لهم عقولاً تستبصر، وقلوبًا تستذكر، وأذن لهم فى أن يتوخوا الخير والصواب والمصلحة العامة والمصالح الخاصة ما وجدوا إلى ذلك سبيلا.. وما من شك فى أن خليفة من خلفاء المسلمين ما كان ليفرض نفسه وسلطانه عليهم فرضًا إلا أن يعطيهم عهده ويأخذ منهم عهدهم، ثم يمضى فيهم الحكم بمقتضى هذا العقد المتبادل بينه وبينهم.. فالخلافة الإسلامية عهد بين المسلمين وخلفائهم.. ولقد قام أمر الخلافة كله على البيعة، أى على رضا الرعية، فأصبحت الخلافة عقدًا بين الحاكمين والمحكومين، يعطى الخلفاء على أنفسهم العهد أن يسوسوا المسلمين بالحق والعدل، وأن يرعوا مصالحهم، وأن يسيروا فيهم سيرة النبى ما وسعهم ذلك، ويعطى المسلمون على أنفسهم العهد أن يسمعوا ويطيعوا وأن ينصحوا ويعينوا.. لذلك، فإن الرأى القائل بأن نظام الخلافة إنما هو النظام الثيوقراطى الإلهى... هو أبعد الآراء عن الصواب..

لم يكن نظام الحكم الإسلامى نظام حكم مطلق، ولا نظامًا ديمقراطيًا على نحو ما عرف اليونان، ولا نظامًا ملكيًا أو جمهوريًا أو قيصريًا مقيدًا على نحو ما عرف الرومان، وإنما كان نظامًا عربيا خالصًا، بيّن الإسلام له حدوده العامة من جهة، وحاول المسلمون أن يملئوا ما بين هذه الحدود من جهة أخرى..

لقد كان نظامًا إنسانيًا، ولكنه على ذلك تأثر بالدين إلى حد بعيد جدًا.

لم يكن الخليفة يصدر عن وحى أو شىء يشبه الوحى فى كل ما يأتى

وما يدع، ولكنه على ذلك كـان مقيـدًا بما أمر الله به من إقامـة الحق وإقرار العدل وإيثار المعروف واجتناب المنكر والصدود عن البغى..»[1].

هكذا تحدث طه حسين عن الخلافة الإسـلامية، وعن طبيعة السلطة فيها -كنظام مدنى ملتزم بالشريعـة الإسلامية.. وقائم على التعاقد بين الأمة والخلافة.. وهكذا قـدم هذه الصياغة المحكمة -فقهـيًا وتاريخيًا- والتى ناقضت ونقضت ما جاء عن الخـلافة فى كتاب [الإسلام وأصول الحكم] -الذى شـارك فيـه طه حسـين فى كـتابتـه.. والذى دافع عنه بحرارة شديدة سنة ١٩٢٥م..

● وفى ذات العام الذى نشر فيه طه حسين ما كتب عن الخلافة الإسلامية -سنة ١٩٥٥م- رأس مؤتمر «اللجنة الثقـافية للجامعة العـربية» -الذى انعقد بـجـدة-= فـى جمادى الأولى سـنـة ١٣٧٤هـ يـنـاير سنة ١٩٥٥م.

وفى كلمته -بهذا المؤتمر- طوى طه حسين الصـفحة التى قال فيها- من قبل- «إن الدين ليس له دور فـى بناء الوطن».. وأعلن أن الإسلام هو الذى أقام الوطن المقدس الذى صنع الإنسان المسلم على امتداد عالم الإسلام.. فقال:

«إن لكل مسلم وطنين، لا يسـتطيع أن يشك فى ذلك شكًا قويًا أو ضعـيفًا، وطنه الذى نشـأ فيه، وهذا الوطن المقـدس -[مهـبط الوحى]- الذى أنشأ أمـته وكون عقله وقلبه وذوقه وعواطفه جميعًا.

---

(١) دكتور طه حسين [الفتنة الكبـرى -عثمان] جـ١ ص ٢٢، ٢٥- ٢٧، ٣٢، ٣٣. طبعة القاهرة سنة ١٩٨٤م.

هذا الوطن المقدس الذى هداه إلى الهدى، والذى يسَّره للخير، والذى عرّفه نفسه، وجعله عضواً صالحًا مصلحًا فى هذا العالم الذى نعيش فيه»[1].

***

هكذا آب طه حسين إلى أحضان النموذج الحضارى الإسلامى.. وغادر الدعوة إلى التماهى فى النموذج الغربى -الوضعى العلمانى-.. وأعلن ضرورة ووجوب الالتزام بحاكمية القرآن الكريم فى الدستور والتشريع والمجتمع والقانون.. وأكد على أن الإسلام هو صانع الوطن الإسلامى، والمقومات والسمات والقسمات التى تمثل هوية الإنسان المسلم، على امتداد الأقاليم والقوميات فى عالم الإسلام.

***

[٩]

ونموذج ثالث لهذا الإياب الفكرى، نجده عند الدكتور محمد حسين هيكل باشا [١٣٠٥- ١٣٧٥هـ ١٨٨٨- ١٩٥٦م]- الذى برع فى ميادين السياسة والتاريخ والأدب والتراجم والمقال الصحفى -فلقد بدأ حياته الفكرية داعية لاستعارة النموذج الغربى فى التقدم والنهوض، لنتحرر به من الهيمنة والإذلال الأوربى، ولنجدد به حياتنا بعد أن أصابها الجمود والتقليد بما يشبه الانحطاط.. فأخذ يبشر بهذا النموذج

---

(١) حسين محمد بافقيه: مجلة [الحج والعمرة] -مكة- العددان ١، ٢- محرم وصفر سنة ١٤٢٦هـ.

الغـربى -القومى.. العلمانى-.. وكـان رئيسًا لتـحريـر صحـيفـة «السياسة»، التى كانت منبـر الدفاع عن كتاب [الإسلام وأصول الحكم] سنة ١٩٢٥م..

لكن الدكتور هيكل أخـذ يكتشف عدم ملاءمـة هذا النموذج الغربى لتاريخنا الفكرى، ومن ثم لتـجديد واقعنا المعيش.. فـانصرف يلتمس مقومات نهوضنا وتقدمنا فى التـراث الفرعونى القديم.. لكـنه سرعان ما اكـتشف أن الحبال قـد تقطعت فيما بـين حاضرنا وبين الفرعـونية القديمة.. فعاد الرجل -منذ إصداره كـتابه [حياة محمد] سنة ١٩٣٠م -إلى التبشير بإسلامية نموذجنا فى التقدم والنهوض..

ولقد تحلى الدكتور هيكل بدرجة عالية من الإخلاص فى هذا التحول الفكرى، ومن ثم بقدر عال جدًا من الشجاعة فى نقد مسيرته الفكرية.. وفى نقد الـنقد الذى وجهـه إليه أصـدقاؤه المتـغربون عندمـا تحول عن مذهبهم إلى طريق الإصلاح بالإسلام... لقد كتب هيكل باشا:

١- فى نقد الفكرة القومية الغربية ذات النزعة العنصرية:

التى بشّر بها زمنا.. ثم اكـتشف مجافاتها لفكرة الأمـة الإسلامية، الواحدة المؤسسة على التوحيد الإسلامى.. فقال:

«إن الفكرة الإسلامـية، المبنية على التـوحيد، تخـالف ما يدعو إليـه عالمنا الحاضـر من تقـديس القومـيات، وتصـوير الأمم وحدات مـتنافسـة، يحكم السيف وتحكم أسباب الدمار بينها فيما تتنافس عليه.

ولقد تأثرنا، معشر أمم الشرق، بهذه الفكرة القومية، واندفعنا ننفخ فيها روح القوة، نحسب أننا نستطيع أن نقف بها فى وجه الغرب الذى طغى علينا وأذلنا. وخيل إلينا فى سذاجتنا أننا قادرون بها وحدها على أن نعيد مجد آبائنا، وأن نسترد ما غصب الغرب من حريتنا وأهدر من كرامتنا الإنسانية.

ولقد أنسانا بريق حضارة الغرب ما تنطوى هذه الفكرة القومية عليه من جراثيم فتاكة بالحضارة التى تقوم على أساسها وحدها، وزادنا ما خيم علينا من سُجف الجهل إمعانًا فى هذا السبيل.

على أن التوحيد الذى أضاء بنوره أرواح آبائنا، قد أورثنا من فضل الله سلامة فى الفطرة هدتنا إلى تصور الخطر فيما يدعو الغرب إليه، ولذلك لم يكن لنا مفر من العودة إلى تاريخنا نلتمس فيه مقومات الحياة المعنوية، لنخرج من جمودنا المذل، ولنتقى الخطر الذى دفعت الفكرة القومية الغرب إليه، فأدامت فيه الخصومة بسبب الحيا ة لمادية التى جعلها الغرب إلهه».

٢- ونقد النزعة العلمانية:

التى طالما بشربها، ودافع عنها، عندما كان «محامى» كتاب [الإسلام وأصول الحكم]- الذى ادعى أن رسول الإسلام لم ينشئ أمة ولا دولة ولا حكومة، انتقد هيكل هذه النزعة العلمانية. . وكتب -فى مرحلة إيابه الفكرى- يقول:

«لقد أقام محمد دين الحق، ووضع أساس حضارة هى وحدها الكفيلة بسعادة العالم فبعد الهجرة إلى المدينة، بدأ طور جديد من أطوار

حياة محمد، بدأ الطور السياسى الذى لم يسبقه إليه أحد من الأنبياء والرسل، فلقد كان عيسى وكان موسى، وكان من سبقهما من الأنبياء يقفون عند الدعوة الدينية، يبلغونها للناس عن طريق الجدل وعن طريق المعجزة، ثم يتركون لمن بعدهم من الساسة وذوى السلطان أن ينشروا هذه الدعوة. فأما محمد، فقد أراد الله أن يتم نشر الإسلام وانتصار كلمة الحق على يديه، وأن يكون الرسول والسياسى والمجاهد والفاتح. والدين والحضارة اللذان بلغهما محمد للناس بوحى من ربه يتزاوجان حتى لا انفصال بينهما.

وقد خلا تاريخ الإسلام من النزاع بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية، فأنجاه ذلك مما ترك هذا النزاع فى تفكير الغرب وتاريخه»[١].

٣- ونقد الانتماء للحضارة الفرعونية:

- الذى بشر به بعد تحوله عن دعوة الانتماء للحضارة الغربية -وفى ذلك قال:

«ولقد انقلبت -[أى بعد مرحلة الانبهار بالغرب]- ألتمس فى تاريخنا البعيد، فى عهد الفراعين، موئلا لوحى هذا العصر، ينشأ فيه نشأة جديدة، فإذا الزمن وإذا الركود العقلى قد قطعا ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب قد يصلح بذراً لنهضة جديدة.

---

(١) دكتور محمد حسين هيكل [حياة محمد] ص ٢٣٦، ٢٣٨، ٢٣٩، ٥١٦، ٥١٩. طبعة دار المعارف- القاهرة سنة ١٩٨١م.

ورؤات [أى نظرت] فرأيت أن تاريخنا الإسلامى هو وحده البذر الذى ينبت ويثمر، ففيه حياة تحرك النفوس وتجعلها تهتز وتربو، ولأبناء هذا الجيل فى الشرق نفوس قوية خصبة تنمو فيها الفكرة الصالحة لتؤتى ثمرها بعد حين»[1].

* وبعد هذه المسيرة الفكرية.. والمعاناة فى البحث عن الجذور والبذور والمنطلقات للمشروع الحضارى النهضوى.. وبعد هذا الإياب للنموذج الإسلامى.. تعرض الدكتور هيكل إلى غمز ولمزمن زملاء الأمس.. الذين اتهموه بالرجعية بعد أن كان تقدميا!.. فعرج الرجل إلى الحوار مع هؤلاء الزملاء الناقدين، مقدما لنا صفحة من الحوار الودى المتحلى بالأدب الرفيع، قال فيها:

«.. وأقف هنا لأدفع زعما حسب الذين زعموه أنه مَغْمَز غمزونى به بعد تأليف كتابى [حياة محمد].

لقد حسب هؤلاء أننى انقلبت رجعيا، وكنت عندهم قبلها فى طليعة المجددين. لكننى أسائل أصدقائى، أحرار الرأى، عن غايتنا جميعًا حين ننتج؟ ألسنا نبتغى التقدم خطوة جديدة فى سبيل الكمال؟

ولقد طالما التمسنا فى شرقنا أسباب النهوض بعلمنا، لنقف إلى جانب الإنسانية المهذبة لا ينكس الخجل رؤوسنا، ولا يحز فى نفوسنا ذلك الشعور الممض بأننا دون الغرب مكانا.

---

(١) دكتور محمد حسين هيكل [فى منزل الوحى] ص ٢٢- ٢٦ طبعة القاهرة سنة ١٩٨١.

ولقد خيل إلى زمنا، كما لا يزال يخيل إلى أصحابى، أن نقل حياة الغرب العقلية والروحية سبيلنا إلى هذا النهوض، وما أزال أشارك أصحابى فى أنا ما نزال فى حاجة إلى أن ننقل من حياة الغرب العقلية كل ما نستطيع نقله.

ولكنى أصبحت أخالفهم فى أمر الحياة الروحية، وأرى أن ما فى الغرب منها غير صالح لأن ننقله، فتاريخنا الروحى غير تاريخ الغرب، وثقافتنا الروحية غير ثقافته، خضع الغرب للتفكير الكنسى على ما أقرته «البابوية» المسيحية منذ عهدها الأول، وبقى الشرق بريئًا من الخضوع لهذا التفكير، بل حوربت المذاهب الإسلامية التى أرادت أن تقيم فى العالم الإسلامى نظاما كنسيا، أهول الحرب، فلم تقم لها فيه قائمة أبدا[١].

بذلك بقى الشرق مطهرا من الأسباب التى أدت إلى اضطراب الغرب الروحى وإلى ثوراته السياسية التى نشأت عن هذا الاضطراب. وبقى المسيحيون المقيمون فى الشرق فى جوار المسلمين فى طمأنينة لا يصْلَوْن من نيران الثورات والحروب الأهلية ما كان يصلاه إخوانهم فى الغرب.

كان الخروج على الكنيسة المسيحية فى الغرب إعلانا للثورة على السلطان، وكانت الثقافة الروحية لذلك فى قبضة رجال الدين، يبرمون من أمرها ما يشاءون إبرامه، وينقضون ما يشاءون نقضه. أما والإسلام لا يعرف الكنيسة، وأقرب الناس فيه إلى الله أتقاهم، ولا فضل فيه لعربى على عجمى إلا بالتقوى، فقد بقيت الثقافة الروحية فى الشرق حرة طليقة لم تقيد إلا حين قعد الجهل بالناس ففترت الأذهان وخمدت القرائح وجمدت القلوب.

---

(١) الإشارة إلى الشيعة الإمامية.

لم تعرف عصور الازدهار الإسلامى قيدا لفكر ما كان صاحبه برئ القصد يبتغى برأيه سبيل الحق، ولم يعرف المسلمون أن الذنوب يغفرها غير الله.

كيف نستطيع أن ننقل ثقافة الغرب الروحية لننهض بهذا الشرق، وبيننا وبين الغرب فى التاريخ وفى الثقافة الروحية هذا التفاوت العظيم؟

لا مفر إذا من أن نلتمس فى تاريخنا وفى ثقافتنا وفى أعماق قلوبنا وفى أطواء ماضينا هذه الحياة الروحية، نحيى بها ما فتر من أذهاننا وخمد من قرائحنا وجمد من قلوبنا.

إن التوحيد الذى أضاء بنوره أرواح آبائنا، قد أورثنا من فضل الله سلامة فى الفطرة هدتنا إلى تصور الخطر فيما يدعو الغرب إليه، وإلى أن أمة لا يتصل حاضرها بماضيها خليقة أن تضل السبيل، وإلى أن الأمة التى لا ماضى لها لا مستقبل لها، ومن ثم كانت الهوة التى ازدادت عمقا بين سواد الأمة فى الشرق والدعوة إلى إغفال ماضينا والتوجه وجهة الغرب بكل وجودنا، وكان النفور من جانب السواد عن الأخذ بحياة الغرب المعنوية، مع حرصه على نقل علومه وصناعاته، والحياة المعنوية هى قوام الوجود الإنسانى للأفراد والشعوب، ولذلك لم يكن لنا مفر من العودة إلى تاريخنا نلتمس فيه مقومات الحياة المعنوية.. ولم ألبث حين تبينت هذا الأمر أن دعوت إلى إحياء حضارتنا الشرقية.

فأين هذا من تملق الجمهور أو متابعته التماسا لرضاه -كما يزعم الذين يغمزون-؟!

لقد حاولت أن أنقل لأبناء لغتى ثقافة الغرب المعنوية والروحية، لنتخذها جميعًا هدى ونبراسا، ولكنى أدركت، بعد لأى، أننى أضع البذر فى غير منبته، فإذا الأرض تهضمه ولا تتمخض عنه، ولا تبعث الحياة.

هذا كلام واضح بيِّن، ومن عجب أن يخفى على أصحابى فلا يرونه، وأن يكون خفاؤه سبب تثريبهم علىَّ.

ولكن، لا عجب، فقد خفى هذا الكلام عنى سنوات، كما لا يزال خفيا على كثيرين منهم»![1].

هكذا تحدث هيكل باشا، بهذا الصدق وهذا العمق، عن الانبهار «ببريق حضارة الغرب الذى أنساه -مع عدد كبير من الصفوة والنخبة- ما بيننا وبين الغرب من خلاف عميق فى الحياة الروحية والمعنوية..» وعن إيابه إلى سبيل إحياء حضارتنا الشرقية، مع استلهام المشترك الإنسانى العام من الحضارة الغربية، متمثلا فى «العلوم والصناعات».

***

-١٠-

أما النموذج الذى خرج من الشرق ولم يعد!.. والذى تماهى مع الغرب؛ وانسحق فيه. وتعلق بالحضارة الأوربية -شكلا ومضمونًا-.. وأصبح هذا الأنسحاق مذهبه الذى يدعو إليه طول حياته، فهو سلامة موسى [١٣٠٥-١٣٧٧هـ-١٨٨٨-١٩٥٨م] الذى كتب فقال:

---

(١) [فى منزل الوحى] ص ٢٢- ٢٦.

«كلما ازددت خبرة وتجربة وثقافة، توضحت أمامى أغراضيى،فهى تتلخص فى أنه يجب علينا أن نخرج من آسيا وأن نلتحق بأوربا، فإنى كلما زادت معرفتى بالشرق زادت كراهيتى له، وشعورى بأنه غريب عنى، وكلما زادت معرفتى بأوربا، زاد حبى لها وتعلقى بها، وزاد شعورى بأنها منى وأنا منها.

فأنا أزاول حرفة الأدب لكى أدْأب فى وعظ أمتى بوجوب كفها عن ممارسة العادات التى اكتسبتها من آسيا، ووجوب اصطناعها عادات أوربا.

أريد من التعليم أن يكون تعليمًا أوربيًا، لا سلطان للدين عليه ولا دخل له فيه، وأريد من الحكومة أن تكون كما هى فى أوربا، وأن يعاقب كل من يحاول أن يجعلها مثل حكومة هارون الرشيد [١٤٩-١٩٣هـ-٧٦٦-٨٠٩م] أو المأمون [١٧٠-٢١٨هـ ٧٨٦-٨٣٣م].

وأريد من الأدب أن يكون أدبًا أوربيًا، أبطاله فتيان مصر وفتياتها، لا رجال الدولة العباسية ولا رجال الفتوحات العربية.

ثم أريد أن تكون ثقافتنا أوربية، أما الثقافة الشرقية فيجب أن نعرفها لكى نتجنبها، لما نرى من آثارها فى الشرق، آثار العبودية والذل والتوكل على الآلهة[!!].

ولست أجهل أن آسيا قد حكمت مصر نحو آلف عام[1]، وبسطت عليها حضارتها وثقافتها، بل ودست دمها فى دماء أبنائها، ولكننا نحمد الأقدار -[!!]- أننا مازلنا فى السحنة والنزعة أوربيين، إذ نحن أقرب فى

---

(١) يعنى بآسيا: حقبة إسلام مصر وتعربها.

هيئة الوجه ونزعة الفكر إلى الإنجليزى أو الإيطالى. وكذلك الحال فى سوريا وشمال إفريقيا العربى، فإن سكان هذه الأقطار أوربيون سحنة ونزعة. فلماذا إذن لا نصطنع جميعًا الثقافة والحضارة الأوربيتين، ونخلع عنا ما تقمصناه من ثياب آسيا؟!

إننا لسنا شرقيين، وإنما جائنا هذا الاسم من أننا كنا تابعين للدولة الرومانية الشرقية عندما انفصلت من الدولة الرومانية الغربية.

وإن الاعتقاد بأننا شرقيون قد بات عندنا كالمرض ، ولهذا المرض مضاعفات، فنحن لا نكره الغربيين فقط، ولا نتأفف من طغيان حضارتهم فقط، بل يقوم بذهننا أنه يجب أن نكون على ولاء للثقافة العربية، فندرس كتب العرب، ونحفظ عباراتهم عن ظهر قلب، كما يفعل أدباؤنا المساكين أمثال المازنى [١٣٠٦-١٣٦٨هـ ١٨٨٩-١٩٤٩م] والرافعى [١٢٩٧-١٣٥٦هـ ١٨٨٠-١٩٣٧م]، وندرس ابن الرومى [٢٢١-٢٨٣هـ ٨٣٦-٨٩٦م] ونبحث عن أصل المتنبى [٣٠٢-٣٥٤هـ٩١٥-٩٦٥م] ونبحث عن علىّ [٢٣ق.هـ - ٤٠هـ -٦٠٠-٦٦١م] ومعاوية [٢٠ ق.هـ - ٦٠هـ - ٦٠٣-٦٨٠م] ونفاضل بينهما، ونتعصب للجاحظ [١٦٣-٢٥٥هـ٧٨٠-٨٦٩م]. ونحاول أن نثبت أن العرب عرفوا الفنون. وكل ذلك إنما يدفعه فى أنفسنا كراهتنا للغرب، وأنفتنا من جهته، واعتقادنا أننا شرقيون من جهة أخرى.

إنه ليس علينا للعرب أى ولاء، وإدمان الدرس لثقافتهم مضيعة للشباب، وبعثرة لقواه، إن العرب أمة قديمة، ونحن أرقى منها، ويجب أن يكون لها أثريون يدرسونها كما يدرسون أشور وبابل.

يجب أن نرتبط بالغـرب، ونصطنع مـا عند الغـربيين من رقص وألحـان وموسيقى. أما الشـعر العربى، فقد سئمنا قوافيـه الرتيبة التى تشبه دق الطبل عند السودانيين.

وإن اللغة العربيـة الفصحى هى لغة ميتة- حـتى فى زمن ظهور القرآن- وإن تعليمها فى مـصر لا يزال فى أيدى الشيوخ الذين ينقعون أدمغـتهم نقعًا فى الثقافة العربية، أى فى ثقافة القرون المظلمة، فلا رجاء لنا بإصلاح التعليم حتى نمنع هؤلاء الشـيوخ منه، ونسلمه للأفندية الذين ساروا شـوطًا بعيدًا فى الثقـافة الحديثة. ونحن إنما ننزع للغة العرب القـديمة لما تأصل فى أذهاننا من ذلك الفرض السخيف، وهو أننا شرقـيون، يجب علينا أن نحافظ على كرامة العرب وندافع عن تاريخهم، وهذا الاعـتقاد فى شرقيـتنا يجر علينا عددًا من الكوارث قد لا يكون الولاء للغة أهونها.

إن اللغـة العربيـة الفصحى تـبعثـر وطنيتنـا المصرية، وتجعـلها شائـعة فى القوميـة العربية، فالمتعـمق فى اللغة الفصحى يشـرب روح العرب، ويُعجب بأبطال بغـداد القدماء، فنظره مـتجـه أبدًا نحو الشـرق، وثقافتـه كلها عـربية شرقية، مع أننا فى كثير من الأحيان نحتاج إلى الاتجاه نحو الغرب.وليس من مصلحة الأمة المصرية أن ينزع شبابها نحو الشرق.

إننا يجب أ ن ننظر إلى لغة النابغـة [١٨ق.هـ ٦٠٤م] أو المتنبى كما ننظر إلى اللغة الروسـية أو الإيطالية، لأنهـا ليست لغتنا، ولسنا نسـتفيد بدرسـها. ونحن نريد العامية لغة الهكسوس، لا الفصحى لغة القرآن والتقاليد العربية.

لقد شرع نابيلون [١٧٦٩-١٨٢١م] يغرس فينا الحضارة الأوربية، ويزيل عنا كابوس الشـرق.. وعندنا أفندية قد تفرنجوا، لكن هنـاك شيوخًا مأفـونين يعدون

التفرنج رذيلة، مع أنه عين الفضيلة. وإنه ما من أمة تنهض إلا وتنسلخ من قديمها. وكل ما هو باق من القديم سيء، لا يزال يؤذينا، مثل وزارة الأوقاف، والمحاكم الشرعية، والمجالس الملّية والبطركيات العديدة، والأزهر، الذى يشتغل بثقافة قديمة بائدة فى عصر حديث، فهو أداة الثقافة المظلمة، ثقافة القرون الوسطى، ولذلك لا أتردد فى القول بإلغاء الأزهر والاكتفاء بالجامعة المصرية.

وإذا كانت الرابطة الشرقية سخافة، لأنها تقوم على أصل كاذب، فإن الرابطة الدينية وقاحة شنيعة، فنحن أبناء القرن العشرين أكبر من أ ن نعتمد على الدين جامعة تربطنا.

إننا فى حاجة إلى ثقافة حرة أبعد ما تكون عن الأديان، ويجب أن نفصل الدين عن الدولة،ونلغى تعليمه فى المدارس.

وإن الرابطة الحقيقة التى تربطنا هى رابطتنا بأوربا، يجب أن نرتبط بأوربا، وأن يكون رباطنا قويًا، نتزوج من أبنائها وبناتها، ونأخذ عنها كل ما يجد فيها، وننظر للحياة نظرها ونجعل أدبنا يجرى وفق أدبها، بعيدًا عن منهج العرب، ونجعل فلسفتنا وفق فلسفتها، ونؤلف عائلاتنا على غرار عائلاتها، ونرسل أولادنا إليها ليتعلموا علومها ويتخلقوا بأخلاقها، فالرابطة الغربية هى الرابطة الطبيعية لنا.

إن الإنسان الأوربى أرقى إنسان ظهر فى العالم حتى الآن، والأمة الإنجليزية هى أرقى أمة فى العالم، جسمًا، وعقلا، وخلقًا. والحضارة الأوربية -على ما فيها من عيوب- هى آخر درجات التطور الاجتماعى، ومن البلاهة البالغة أن يظن أحد الشيوخ أن حضارة بغداد أو القاهرة

أو الأندلس كانت تبلغ فى السمو عشرا أو جزءاً من مائة مما تبلغه الحضارة الأوربية. الآن، فلنولي وجوهنا شطر أوربا.

وقد يكون اصطناع القبعة أكبر ما يقرب بيننا وبين الأجانب، ويجعلنا أمة واحدة ، والقبعة هى رمز الحضارة، يلبسها كل رجل متحضر.. إننا سنبقى فى نظر أنفسنا ونظر الأوربيين شرقيين حتى نتخذ القبعة لرجالنا ونسائنا، ونعلن انسلاخنا من الشرق، ولغرامى بالحضارة الأوربية أحث بنى وطنى أن يلبسوا القبعة، لأنها تبعث فينا العقلية الأوربية.

هذا هو مذهبى، الذى أعمل له طول حياتى، سراً وجهراً. فأنا كافر بالشرق، مؤمن بالغرب، وفى كل ما أكتب أحاول أن أغرس فى ذهن القارئ تلك النزعات التى اتسمت بها أوربا فى العصر الحديث، وأن أجعل قرائى يولّون وجوههم نحو الغرب، ويتنصلون من الشرق...»[1].

هكذا خرج سلامة موسى من الشرق، ولم يعد. . فلقد انسحق فى الغرب ، الذى كان يحتل وطنه ويقهر شعبه، ويحاول مسخ هويته .

وهكذا أعلن سلامة موسى عن مذهبه ، فى «صراحة» بلغت حد «الوقاحة» وإن كان للرجل من «فضيلة» فهى الإعلان عن كثير مما يعتقده آخرون، لكنهم يلوذون بالنفاق!.

ويا ليت سلامة موسى كان حيًا الآن، ليشهد عودة الشرق إلى هويته الإسلامية . . مع التواصل الصحى مع الغرب -وحضارات الشرق الأخرى- فيما هو مشترك إنسانى عام. .

---

(١) سلامة موسى [اليوم والغد] ص ٥-٧، ٩، ١٧٩، ٣٨، ١٨٣، ١٨٤، ١٩٠، ١٨٦، ٧٤، ١٧٧-١٧٩ ١٩٤، ٢٠٤، ٢٠٥، ١٨٢، ١٨٧، ١٨٨، ٢٠٠، ٢٠١، ١٧٨، ١٨٩، ٢٠٣، ٣٥-٣٨، ٢٠٥، ٨٢. طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨م.

بل وليشهد دخول الحداثة الغربية في مأزق.. بعد أن دفعت المسيحية الغربية إلي نفق مظلم ومغلق!.. وليشهد الليبرالية الغربية التي دخلت هي الأخرى في مأزق، بعد أن توحشت على نحو شديد!..

وياليته كان حيًا ليقرأ ما كتبته مجلة «التحديات CHALLENGES»

- الأسبوعية الفرنسية- عن حاجة الغرب -كي يخرج من أزمته- إلى الحل الإسلامي-في الاقتصاد اللاربوى- فقالت -إبان زيارة بابا الفاتيكان لأمريكا-:

«إنه في حين يمر العالم بأزمة مالية تجتاح جميع معالم النمو في طريقها، يجب علينا قراءة القرآن بدل نصوص البابوية.

ولو طبق رجال البنوك الطامعون بالمردود على الأموال الخاصة -ولو قليلا- الشريعة الإسلامية، ومبدأها المقدس: «المال لا ينتج المال» فإننا لم نكن لنصل إلى ما وصلنا إليه...»[1].

ليت سلامة موسى كان حيًا ليعاين ما آلت إليه الأمور.. فلربما خلع قبعته تحية للشرق وحضارته الإسلامية.. أو ربما رمى بقبعته إلى حيث ألقت أم عمرو حذاءها!

***

(١) انظر: أكرم بلقعيد [عودة البنوك الإسلامية] -ملحق «لوموندديبلوماتيك» النسخة العربية - توزيع صحيفة «الأخبار» المصرية» في ١٧-١١-٢٠٠٨م.

على هذا النحو كان التقاء الحضارات وتعارفها. . وهكذا ساد الموقف الوسطى المتوازن فى هذا الالتقاء وهذا التعارف:

- **التفاعل والاستلهام فى المشترك الإنسانى العام بين هذه الحضارات..**
- **والتمايز فى الخصوصيات التى تختص بها كل حضارة من الحضارات..**

ولقد كان هذا هو الطابع العام عند النماذج التى مثلت تلاقى وتعارف هذه الحضارات. . وحتى الذين بدأت حياتهم الفكرية بالانبهار، الذى أخل بهذا التوازن. . عادوا -فى مراحل نضجهم الفكرى- إلى موقف التوازن والاعتدال. . اللَّهم إلا ما ندر من الذين انسلخوا عن حضاراتهم وتماهوا فى حضارة الآخرين.

***

ولم يكن هذا القانون -فى تعارف الحضارات- وقفًا على تعرّف الحضارة الإسلامية على غيرها من الحضارات. .وإنما كان قانونًا عامًا. . طبقته الحضارة الغربية - إبان نهضتها الحديثة، وذلك عندما انفتحت على تراث الحضارة الإسلامية- فى الأندلس. . وصقلية. . وإبان الحروب الصليبية- فتعرفت على تراثها الإغريقى والرومانى من خلال الترجمات والشروح العربية لهذا التراث. . كما حدث عندما أخذت أرسطو [٣٨٤- ٣٢٢ق.م] عن طريق شارحه الأكبر ابن رشد [٥٢٠- ٥٩٥هـ- ١١٢٦-١١٩٨م] وأخذت كل تراثها اليونانى والرومانى فى العلوم الطبيعية، عن العلماء العرب والمسلمين. .

لكن هذه النهضة الأوربية الحديثة قد أخذت من تراث الإسلام

وتركت -وفق قانون العموم والخصوص-.. أخذت تراثها الإغريقى والرومانى- لأنه الروح المؤسسة لخصوصيات الحضارة الأوربية.. وأخذت الإضافات والإبداعات والمناهج التجريبية التى أضافها المسلمون لهذه العلوم الطبيعية، لأنها من المشترك الإنسانى العام..

فى ذات الوقت الذى رفضت فيه خصوصيات الحضارة الإسلامية - فى العقائد والشرائع ومنظومة القيم والأخلاق-.. بل لقد تعاملت مع ابن رشد وفق هذا القانون.. فأخذت منه شروحه على أرسطو..وتركت ابن رشد الفقيه المالكى.. والمبدع فى علم الكلام الإسلامى.. وقاضى قضاة قرطبة.. فقيه الفلاسفة وفيلسوف الفقهاء.

إذن.. هو قانون عام، حكم ويحكم تعدد الحضارات.. والتعارف الصحى الذى قام ويقوم بين هذه الحضارات.

● ولقد جاء فى الهدى النبوى الشريف:

«**الكلمة الحكمة ضالة المؤمن**» رواه الترمذى وابن ماجة.

و«**الحكمة: الإصابة فى غير النبوة**» -البخارى-.

● وقال الإمام أبو الوفاء ابن عقيل البغدادى [٤٣١-٥١٣هـ -١٠٤٠-١١١٩م]:

«**السياسة: هى التدابير التى يكون الناس معها أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد، وإن لم ينزل بها وحى أو ينطق بها رسول**».

● وقال الكندى [٢٦٠هـ ٨٧٣م] الفيلسوف:

«خليق بنا ألا نخجل من الاعتراف بالحقيقة واستيعابها مهما كان مصدرها».

● وقال أبو الوليد ابن رشد [٥٢٠-٥٩٥هـ ١١٢٦-١١٩٨م]:

«إنه يجب علينا أن نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا فى ذلك: سواء أكان مشاركا لنا فى الملة أو غير مشارك، طالما كان صوابًا».

● وقال جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤- ١٣١٤هـ ١٨٣٨- ١٨٩٧م]:

«إن أبا العلم وأمه هو الدليل.. والحقيقة تُلتمس حيث يوجد الدليل».

فالحكمة، هى ضالة المؤمن.. يبحث عنها فى أية حضارة من الحضارات..

وهو أحق الناس بها، طالما هى حكمة وصواب..

أما الذين يقفون من الآخر الحضارى موقف «القردة» الراقصين على أنغام الآخرين- بصرف النظر عن طبيعة هذه الأنغام- فإنهم البلهاء..

أو «العوام» الذين قال عنهم الفيلسوف ابن سينا:

«إنهم عوام المتفلسفة، المشغوفين: باليونانيين، الظانين أن الله لم يهد إلا إياهم، ولم يُنل رحمته سواهم»!

نعم.. إنهم «عوام» أفسد التغريب فطرتهم، التى ظلت صالحة عند جماهير أمة الإسلام.. هم «عوام» وإن حسبوا أنفسهم صفوة ونخبة.. متميزة عن الجماهير!.

***

المصادر والمراجع

ابن سعد: [الطبقات الكبرى] طبعة دار التحرير- القاهرة.

ابن النديم: [الفهرست] طبعة بيروت- مصوَّرة-.

بكر: [وارث ووارث] -بحث منشور بكتاب دكتور عبد الرحمن بدوى [التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥م.

دكتور جابر عصفور: [التنوير يواجه الظلام] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م.

الجاحظ: [البيان والتبيين] طبعة بيروت سنة ١٩٦٨م.

[كتاب الحيوان] تحقيق: عبد السلام هارون. طبعة القاهرة.

الجامعة الأمريكية: [حضارة مصر الحديثة] طبعة القاهرة ١٩٣٣م.

حسين محمد بافقيه: مجلة [الحج والعمرة] -مكة- عددى محرم وصفر سنة ١٤٢٦هـ.

سلامة موسى: [اليوم والغد] طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨م.

دكتورة سيجريد هونكة: [العقيدة والمعرفة] ترجمة: عمر لطفى العالم. طبعة دمشق- سنة ١٩٨٧م.

[الله ليس كذلك] ترجمة: دكتور غريب محمد غريب. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٥.

دكتور طه حسين: [مستقبل الثقافة فى مصر] طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ .

[فى الشعر الجاهلى] طبعة القاهرة، سنة ١٩٢٦ .

[الفتنة الكبرى- عثمان] -١- طبعة القاهرة سنة ١٩٨٢م.

[من الشاطئ الآخر] ترجمة: عبد الرشيد الصادق المحمودى -طبعة بيروت سنة ١٩٩٠م.

الطهطاوى -رفاعة-: [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق: دكتور محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م. . وطبعة القاهرة سنة ٢٠١٠م.

على عبد الرازق: [الإسلام وأصول الحكم] طبعة القاهرة سنة ١٩٢٥م.

دكتور على فهمى خشيم: [الجبائيان أبو على وأبو هاشم] طبعة ليبيا سنة ١٩٦٨م.

الماوردى: [الأحكام السلطانية] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣م.

مجلس النواب المصرى: [مضبطة مجلس النواب المصرى] سنة ١٩٤٦م.

دكتور محمد حسين هيكل: [حياة محمد] طبعة القاهرة سنة ١٩٨١م.

[فى منزل الوحى] طبعة القاهرة سنة ١٩٨١م.

دكتور محمد الدسوقى: [طه حسين يتحدث عن أعلام عصره] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٢م.

دكتور محمد ضياء الدين الريس: [الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية] طبعة القاهرة سنة ١٩٦١م.

دكتور محمد عمارة: [الإسلام فى عيون غربية] طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٥م.

[الانتماء الحضارى للغرب أم الإسلام؟] طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٨م.

[الإسلام والسياسة] طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٨م.

[معركة الإسلام وأصول الحكم] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٩م.

[الإسلام بين التنوير والتزوير] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٥م.

نلينو: [محاولة المسلمين إيجاد فلسفة شرقية] -بحث منشور ضمن كتاب دكتور عبد الرحمن بدوى [التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥م.

وزارة الإرشاد القومى -مصر-: [لجنة مشروع الدستور] طبعة القاهرة- بدون تاريخ.

موسوعات:

[الموسوعة العربية] -طبعة دمشق- سنة ٢٠٠٢م.

دوريات:

السياسة- القاهرة.

الأهرام- القاهرة.

رسالة الإسلام- القاهرة.

***

الفهرس